رحلة بين عصرين

توفيق الحكيم



رحلة بين عصرين

توفيـق الحكيـم

رحلة على جناح عصفور

فكرة هذه الرحلة قديمة . لقد عرض على القيـــام بها منذ سنوات ، وكنت أتكاســـل وأتخاذل وأؤجـــل التنفيذ من عام الى عام مخترعة شتى الحجج ، الى أن فكرت أخيرا فى هذه المرحلة من عمرى . وايقنت ان كل عام يمضى تزداد بى السن تقدما والصحة ضعفا . فلن أحتمل بعدئذ السفر . وحزمت أمرى وقمت أنفض الغبار عن همتى .. لكن ما هو المطلوب منى .. ؟ قيل لى الامر بسيط . انها رحلة انطباع عابر لاول رحلة لك الى اوروبا قمت بها فى المـــاضى . ولرحلة اليوم التى تقوم بها فى الحاضر .. ولكن الامر ليس سهلا فقد مضى نحو نصف قرن بين الرحلتين ... فصـــور الماضى كادت تزول من رأسى . اما الحاضر فأنى أواجهه بنفس شاخت وفقـــدت الكثير من مرح الشباب وانطلاقته وحماسته ودهشته .

ولكنى سأحاول . وأبدأ فأعتصر راسى لأستخلص منه ذلك الشريط من الذكريات ، الذى أخشى أن يكون قد بهت ، وأحلق من فوق جناح عصفور لاشمل بنظرتى السريعة ، ما كان وما يكون ، أما ما كان فهو يوم فى مطلع العشرينات من هذا القرن . يوم صيف . شهر يولية فيما أذكر . وضعت قدمى على سلم باخرة ، تذهب بى الى فرنسا . لم تكن الطائرات بالطبع قد استخدمت فى السفر . ولم أكن قد ركبت البحر قط . كانت الباخرة تسمى « الجنرال متزنجر » . جنرال فى الجيش الفرنسى طبعا . ماذا صنع هذا الجنرال لتسمى الباخرة باسمه ؟ لا أدرى . كل ما نجده عنه فى القاموس الفرنسى انه ولد عام ١٨٤٢ ومات عام ١٩١٤ . أى أنه لم يحضر حتى الحرب العالمية الاولى . وربما حضرها ومات عند اول طلقة . وقد علمت أنهم أعدموها أو فكوا أجزاءها بعد تلك الرحلة. ركبت بالبداهة فى الدرجة الثانية . لانه لم يكن بها درجة ثالثة . وكانت الايام تبدو طويلة رتيبة مملة على ظهر السفينة . وأمامنا خمسة أيام طوال لا ندرى كيف نقضيها . وعلمنى أحد رفاق السفر لعبة « الدومينو » لقتل الوقت . وهذه الالعاب لا تدخل عقلى . وكثيرا ما حاولوا تعليمى لعب « الطاولة » ولم يثمر التعليم . ولكن سأم السفر الطويل فى بحر لا يتغير أرغمنى على هذه اللعبة ، فلعبتها مع الرفاق حيثما اتفق وهم يضحكون من لعبى ، الى أن اقتربنا من الشاطىء فنسيتها ولم أعد قط اليها فى حياتى . .

ووصلنا آخر الأمر الى ما يطلق عليها « مدينة النور » .

فبماذا شعرت ؟ أنا القادم المشتاق ؟ ..

ليس سهلا أن استعيد ذكرى يوم مضى عليه ما يقرب من نصف قرن .. يوم وطئت قدمى أرض باريس .. لم يبهرنى أول الامر منظر هذه المدينة التى يسحرنا مجرد اسمها .. ما من رواية قرأناها فى الصغر الا وفيها وصف لاضواء باريس يلهب خيالنا حتى كدنا نتصور بيوتها طوبة من فضة وطوبة من ذهب . لا شىء من هذا رأيته . انما هى بيوت عادية رمادية اللون مائلة السطوح . والمطر يتساقط رذاذا . والسماء مكسوة بغمام أبيض وهواء بارد لافح ، لكنه منعش ، بدد فى الحال أثر الارق فى تلك الليلة التى قضيتها فى القطار ، من ميناء مرسيليا الى باريس . ليلة لم أستطع النوم فيها لسبب شاءه سوء حظى . فقد كان معى اشخاص عديدون ازدحم بهم ديوان العربة . وجاءت جلستى ملاصقة لصبى فى العاشرة الى جوار أمه . كان كثير الحركة زائغ البصر دائم الهمهمة . وأطفأ بعض المسافرين النور الساطع ، وأظلم المكان الا من نور أزرق خافت ، نام عليه الجميع . وعلا الغطيط . الا ذلك الصبى المضطرب بجوارى . ولاحظت أمه ضيقى به ، فأومأت الى باشارة ثم بهمسة فهمت منها أن هذا الصبى مصاب بلوثة جنون ، وانها بسبيل ادخاله مصحة أو مستشفى للامراض العقلية .. فما أن عرفت ذلك حتى وثبت لتوى مذعورا من ديوان العربة الى الممر الضيق ، وصرت طول ليلى أتمشى أو أسند رأسى الى نافذة .. وقد رأيت ذلك أسلم لى من البقاء بجانب صبى فاقد العقل ، قد يهيىء له جنونه أن يدخل أصبعه فى عينى ، أو يقرض بأسنانه أذنى .. وانتظرت زوال الليل بصبر

نافذ . ولاح الفجر . ورأيت لافتات عليها كلمة « باريس » . فأيقنت بقرب الوصول . ولم يمض بالفعل قليل حتى دخل القطار محطة باريس . وأنا شبه مخدر من التعب . وجاء حمال فحمل حقائبى الى سيارة أجرة ، طلبت من سائقها أن يذهب بى الى فندق فى الحى اللاتينى . وجعلت طول الطريق أتأمل الاشجار الباسقة على جوانب الشوارع شديدة الاخضرار .. اخضرارها يبهر العين .. عين مثلى على الاقل فأنا لم تألف عيناى الاخضرار . تغتسل برذاذ المطر باستمرار .. كأنها حور حسان تحت دش حمام .. ان الطبيعة هنا تحب الشجر كما تحب الام طفلها .. فهى تواليه بالتنظيف كل صباح . هنا كل شىء نظيف . والماء يجرى دائما من تحت الافاريز الى بالوعات غير مرئية . والجو بدا فى نظرى فضى اللون .. كل شىء من حولى الان فى لون الفضة ولون الزمرد . ان الطبيعة هى التى تتولى تزيين باريس .. وأخذتنى اغفاءة فى السيارة لم أفق منها الا أمام فندق وقفنا ببابه . كان اسمه « فرنسا والشرق » . وهناك أنزلونى فى حجرة بالطابق الرابع صعدت اليها بسلم ضيق . لم تكن المصاعد بالكثرة التى نعرفها اليوم . كانت الحجرة صغيرة ، ولكنها نظيفة . مفارشها بيضاء ناصعة .. لم أعتد مثل هذه المفارش الناصعة شبه المنشاة .. فخجلت أن ألقى بجسمى المترب عليها فجلست فى استحياء على مقعد صغير من الخشب ونصحنى مدير الفندق أن استأجر الحجرة بالشهر لا بالليلة ، ما دامت اقامتى طويلة ، فان هذا أوفر لى . وحسب لى الاجر الشهر بأبعمائة فرنك أى ما يقرب وقتذاك من أربعة جنيهات . وهو

مبلغ أستطيع دفعه . فان مقدار ما سيصلنى شهريا من مصر لمعيشتى فى باريس هو عشرة جنيهات . الامر الوحيد الذى ضايقنى هو عدم وجود حمام بالفندق كله . وقالت لى خادم الطابق العجوز أن هذا حال أكثر فنادق الحى ، وعلى من يريد الاستحمام أن يذهب الى حمام السوق . وعجبت ان تستحم هنا الاشجار بدش حمام سماوى ، ولا يجد نزلاء الفنادق دش حمام عادى ! .. وماذا عساى أصنع للوضوء ؟ ! انى معتاد الصلاة .. وقد جئت من بلادى الى أوروبا والايمان ملء قلبى ، وأنا قابض على دينى كالقابض على الجمر ! .. وكيف السبيل الى التطهر اذن والمرحاض هنا ليس به ماء ؟ ! . ورأيت بجوار فراشى قارورة ماء للشرب مغطاة بكوب زجاجى ، فصرت قبل كل صلاة أحمل هذه القارورة معى الى المرحاض . ولحتنى الخادم العجوز وأنا أذهب وأجىء فى اليوم مرات عديدة حاملا القارورة فسألتنى فى دهشة : « اخبرنى يا سيدى لماذا تحمل الماء دائما هكذا ؟ ! . هل تخشى العطش وأنت تسير ؟ . اننا هنا لسنا فى الصحراء ؟ ! » .

. . . . .

فى اليوم التالى سرت فى الحى اللاتينى على غير هدى . كان همى الاول أن أتخير مطعما للغذاء .. ولكن المطاعم هنا كثيرة تملأ الشوارع . وعلى أبوابها بطاقات الطعام والاسعار .. ما هذا الرخص ؟ ! وهذا الخير الكثير ؟ ! هذا مطعم يقدم وجبة غذاء كاملة من لحم وخضر وفاكهة وخبز وزجاجة نبيذ أو مياه معدنية بخمسة فرنكات ، أى نحو خمسة

قروش مصرية ! .. انى هنا لن أشكو الجوع أبدا .. لكن الاعجب هو غذاء العقل ! .. ها هى ذى مكتبة كبيرة قد عرضت فوق الافريز مجموعات من المجلدات القديمة التى أعرف قيمتها بأزهد الاثمان . كل مجلد منها بفرنك ونصف الفرنك ، وأحيانا ثلاثة فرنكات لمجموعة من مسرحيات موليير وكورنى وراسين وفولتير .. ولكنى قبل كل شىء احتاج هنا الى قاموس ودائرة معارف . واقتنيت من هذه المكتبة معجم لاروس الكبير فى جزءين ضخمين بما لا يزيد عن مائة فرنك. وهو ثمن زهيد لهذه الجامعة المتنقلة تحت ذراعى .. وكان هذا أهم شىء صنعته فى يومى .. وفى طريق عودتى الى فندقى لمحت فى حانوت للحلوى صندوقا كبيرا من البسكوت الفاخر المحشو بالزبد والمربى ، فوقه بطاقة بسعر أذهلنى رخصه ، فمثل هذا البسكوت ما كان يخطر لى فى مصر ان أقدم على شرائه .. دخلت الحانوت وخرجت بالصندوق . وفى حجرتى وكانت لها شرفة تطل على الشارع ، جلست واضعا الصندوق فى حجرى ، ولم أفطن الى نفسى الا وقد أتيت على كل ما فيه من هذا البسكوت اللذيذ ، وأنظارى لاهية الى استطلاع مافى الشارع من حركة وما حولى من منازل .. واستلفت نظرى مبنى فى مواجهتى له مهابة ، فسألت عنه الخادم فقالت انه « الكوليج دى فرانس » . ولم تزد . ولم أفهم منها المقصود . فلجأت الى جامعتى المتنقلة « معجم لاروس » وكشفت عن كلمة « كوليج » فعثرت على ضالتى فى هذه السطور : « كوليج دى فرانس معهد أسسه فى باريس فرنسوا الأول عام ١٥٣٠ ميلادية ، خارج نطاق الجامعة ، بناء على مشورة جيوم بوديه.

والدراسة فى هذا المعهد تشغل كل مجالات المعرفة الانسانية . والمحاضرات داخل هذا المعهد مفتوحة للجميع ، ولا يعقد فيه أى امتحان . فهى دراسات تكميلية تطلب لذاتها » . ولم أكن أعرف شيئا عن جيوم بوديه هذا الذى أشار بانشاء مثل المعهد ؟ .. من هو ؟ وما صناعته ؟ . ورجعت فى الحال الى جامعتى معجم لاروس ، وبحثت عن هذا الاسم وعلمت : « انه فيلسوف فرنسى (١٤٦٧ — ١٥٤٠) وواحد من أوائل المتخصصين فى عصره فى الثقافة الاغريقية . وقد توسل بما له من حظوة لدى الملك فرانسوا الاول لاقناعه بانشاء معهد « الكوليج دى فرانس » .. وغرقت فى التفكير .. يا للعجب ! .. بل يا للرقى ! .. رقى النفس والعقل .. ان يطلب الانسان المعرفة لذاتها .. للسمو بها .. لا بغية نجاح فى امتحان أو حصول على شهادة أو وصول الى وظيفة ! .. ربما كان لدينا نحن أيضا شىء كهذا فى يوم من الايام . بل ربما كان هذا مستوحى من أقدم جامعة فى العالم وهى « الأزهر » .. يخيل الى أن الازهر أيضا فى أوج ازدهاره كان مفتوحا هو الاخر لكل ألوان المعرفة فى عصره ، لكل من يطلبها لذاتها . لا ابتغاء منفعة عاجلة من شهادة امتحان للارتزاق والامتهان . ان الشيخ الاستاذ وحوله الطلاب ما كان يجمعهم ويربطهم غير حب العلم وحده . ما كان هناك جبر ولا الزام . من حضر حضر ومن غاب غاب ، والاستاذ فى مكانه يفرز علمه كما يفعل النحل الدؤوب دون نظر الى من يتلقى العسل . ويكفى عقل واحد يواظب وينتفع ويتلقى عنه مشعل المعرفة ليبقى دائم التوقد متصل الاشعاع ..

لم أكن بعد مهيأ من حيث اللغة والثقافة لافهم وانتفع بمحاضرات مثل هذا المعهد الحر .. كان يجب أن أقرأ وان أغرق طويلا فى شتى الكتب أولا .. وها هنـــا الكتب زهيدة الثمن . وصرت بالفعل أبدا أول ما أبدأ عند نزولى الى الشوارع بالمرور على المكتبات أغرف منها وأحمل الى حجرتى .. الى ان خطر لى الذهاب الى حى مونمارتر .. هذا الاسم الذى طالما سمعت به من قبل ، ففترنا بأســماء الفنـــانين البوهيميين والاوباش وأهل الفجور .. أما الأوباش وأهل الفجور فحاشا لله . فأنا ولله الحمد ما زلت محتفظا بروحى الدينى واما الفن فهذا هو الذى يهمنى . انى أريد أنا أيضا أن أكون هنا فنانا بوهيميا ، وقد كنت كذلك فى مصر قبل مجيئى يوم كنت أتسكع من ملحن روايتى كامل الخلعى وأصدقائه المتصعلكين فى شارع محمـــد على .. لمـــاذا لا أذهب اذن الى مونمارتر وأعيش هناك ؟ ! . ونهضت ذات صباح وحزمت أمتعتى وركبت سيارة أجرة وقلت للسائق : الى مونمارتر .. وفى مداخلها أبصرت لافتة عليها كلمة فندق ، فبـــادرت أطلب من السائق الوقوف ، ودخلت بأمتعتى توا الى الفندق ، فاستقبلنى مديره ومساعده . فلم أضيع وقتا وقلت لهما على الفور : « أريد حجرة بالشهر . لان اقامتى عندكم مستديمة » .. فضحك الرجلان ضحكا أثار دهشتى . ولمـــا بدا لهما أنى لم أفهم ، أشارا الى سلم الفندق فأبصرت رجلا وامرأة يصعدان ورجلا وامرأة يهبطان .. ولم يظهر على مع ذلك علامات الفهم ، وعندئذ طلب منى المدير ومساعده أن أقرأ رقعة معلقة بالحائط قرب الباب تفيد أن الحجرات فى هذا الفندق تستأجر بالساعة .. عندئذ فقط أدركت

انى وقعت فى فنـدق مشبوه للمواعيد الغراميـة ، لا للاقامة العادية . فانصرفت خجلا وأنا أتعثر فى أمتعتى ، والرجلان يضحكان منى ويسخران ويرددان : « بالشهر ! .. يقول بالشهر ! » ..

وعدت ادراجى الى قواعدى بفندق «فرنسا الشرق» فى الحى اللاتينى فهو حى على الاقل أعرفه . وأعرف فيه موضع قدمى . ومرت الايام وانا ازداد به الفة . واتخذت لى فيه مقهى جعلته مكانى المختار . كان على ناصية الشارع الذى به جامعة السوربون . اسم هذا المقهى « داركور » . لم يعد له وجود الان . ولكنه فى ذلك العهد كان له شأن . وكان يؤمه القـادمون الغرباء من أمثالنا . وفيه عرفت صديقا من أصدقاء العمر . فريد الشخصية عجيب الاطوار . لم ينقطع اتصالنا طول الاعوام الا بانتقاله الى رحمة الله . اسمه : « الدكتور سعيد » .. كان قد جاء من مصر ، لا للدراسة فى جامعة ولكن للتمرن العملى على الابحاث البكتريولوجية فى معهد باستور .. حكيت له ما حدث لى فى مونمارتر فضحك هو الآخر . وسـألنى عمن يخدمنى فى فندقى ، فلما قلت له انها خادم عجوز ، صاح مشمئزا : « أعوذ بالله ! . فى باريس وتخدمك عجوز ؟ ! .. قم يا شيخ وأترك فى الحال هذا الفندق!» ونصحنى بالانتقال الى فندقه . ولما سألته عمن يخدمه هناك قال : « رجل عجوز .. » فصحت بدورى : « أعوذ بالله ! » فابتسم وقال : « انتظر .. اصبر ولا تقاطعنى .. انه فعلا رجل عجوز ولكنه كنز من الكنوز ! » . وروى لى حكايته مع هذا الرجل .. قال انه نزل هذا الفندق ليلا . وفى الصباح استيقظ

ودق الجرس طالبا الفطور ، وهو يمني النفس بخادمة حسناء تدخل عليه . فلما دخل عليه هذا الرجل العجوز بشواربه صاح : « اخص على هذا الصباح الهباب رجل بشوارب اصطبح بوجهه فى باريس ! » وقام من فوره يحزم أمتعته ويترك الفندق . وفهم الرجل وابتسم . وأخبره أن الطابق الاعلىٰ تخدم فيه خادم حسناء اسمها « جانيت » . والطابق الاسفل حسناء أخرى اسمها « زيزيت » فزاده هذا نكدا وقال: « وما الذى أوقعني أنا فى هذا الطابق الملعون ، الذى يخدم فيه رجل بشوارب اسمه .. » وسأله عن اسمه ، فأجابه : « غليوم » . فقال له « أنقل أمتعتى فى الحال يا غليوم الى فوق أو الى تحت ! .. » فقال الرجل بأبتسامة ماكرة : « لا داعى الى أنتقالك ياسيدى أليس عندك زرار مخلوع فى قميصك لارسل اليك جانيت بالابرة والخيط كى تصلحهالك !، وهذه البقعة فى سترتك لابد ان تحدث ان لم تكن حدثت من اثر سقوط ملعقة مربة أو زبدة أو نحو ذلك ولابد اذن من ان ارسل اليك زيزيت لتنظفهالك ... ما رايك فى كل هذا ؟ ! ... فأنفرجت اسارير الدكتور سعيد وقال : هذا كلام معقول ! .. ووضع فى كفه خمسة فرنكات ضاعفت من همته ، وقال ان بالطابق الاخير حسناء ثالثة أسمها « انطوانيت » سيأتى دورها . وفعلا طلب صديقى وقد ادعى المرض من يدلك له جسمه فقال له غليوم ان هذا شغل انطوانيت ، وأسرع يناديها ... وهكذا اصبح غليوم هذا لصديقى كنزا من الكنوز . الا ان صديقى الطموح لم يكتف بهذا ، بل طمع ذات يوم فى المديرة نفسها . تلك التى تجلس فى صدر بهو الفندق بزهو وكبرياء . وكانت امراة ناضجة

مليحة ، وفاتح كنزه الثمين غليوم فى أمرها . فصاح فزعا: لا يا سيدى الا هذه ! .. » فنفحه بسخاء ، وصديقى هذا كان يتقاضى مرتبا مجزيا باعتباره طبيبا مبعوثا من الدولة . فنشط غليوم بفعل المنحة السخية واتقد ذكاؤه وتفتق فكره ، فبادر الى ستارة النافذة الوحيدة فى الحجرة فجذبها جذبا فانخلعت .. وقال « سأنزل الى المديرة وأخبرها أن ستارة نافذتك مخلوعة وعليها ان تأتى لمعاينتها والامر باصلاحها ، فاذا دخلت حجرتك فعليك أنت بالباقى » .. وسألت صديقى الدكتور سعيد عما حدث بعدئذ ، فرفض أن يخبرنى واكتفى بأن قال لى : « فيما بعد أخبرك .. أما الان فان الاهم هو أن تأتى حالا الى هذا الفندق لننعم معا بفضائل هذا الكنز المدعو « غليوم » ! ..

ولم ابطىء بالطبع . فلم تمض ساعة او اقل حتى كنت أحمل أمتعتى الى هذا الفندق البهيج . وما كدت ادخل البهو حتى استقبلنى الصديق باسما قائلا : « اختر لك ما يحلو .. تسكن طابق جانيت أو طابق زيزيت أو طابق أنطوانيت ؟ » فقلت له « بل طابق غليوم وهو يوزع علينا الخيرات ! .. تحت اشرافك طبعا . وقد تركت لكرمك وسخائك مهمة المنح والعطاء باسمى واسمك ! .. » فقال : « أمرك ! .. ونادى غليوم وأمره بحمل أمتعتى الى حجرة بطابقه . وصعدت لانظم شأنى فى مسكنى الجديد ، على أن الحق بصديقى بعد قليل فى مقهى داركور .. وما أن استقر بى المقام فى حجرتى حتى نهضت افتح حقائبى وأخرج ملابسى ثم موس الحلاقة وأحلق ذقنى أمام مرآة فوق مائدة عليها طست واسع من الخزف الملون وأبريق ماء كبير لغسل الوجه . فمثل هذه الفنادق

لم يكن بها فى ذلك العهد من أوائل العشرينات حنفيات الماء الجـــارى فى الحجرات كما هو العهـــد الان .. وما أن انتهيت من حلاقة ذقنى وأعجبنى شكلى حتى بادرت الى زرار قميصى فخلعته ، ثم ناديت غليـــوم وأشرت له الى القميص قائلا : « الزرار انخلع ! » .. فقال : « لحظة واحدة يا سيدى » .. وانصرف سريعا وتركنى أمنى النفس برؤية جـــانيت أو زيزيت أو انطوانيت .. وعـاد غليوم فعلا بعد لحظة . ولكن بمفرده . وفى يده ابرة وخيط . فصحت به : « ما هذا ؟ فقال متعابطا : « ألم تطلب ذلك ؟ ! » قلت له : « بل طلبت جانيت أو زيزيت ! .. » فابتسم . لكنه عاد فتجهم وهرش رأســه الاصلع قائلا : « هو صديقك قال لك ؟ ! » فأجبته « طبعا » . فعاد الى هرش رأسـه بلكاعة . وفهمت مراده وأسرعت الى محفظتى وأخرجت منها خمسة فرنكات وضعتها فى كفه . فتهلل وجهه . ودب فيه حماس مفاجىء . وقال : « شكرا يا سيدى لحظة واحدة ! » وخرج مسرعا .. وجلست أنا على مقعد انتظر وكل أنظارى الى باب الحجرة .. وتذكرت المحفظة فى يدى ففتحتها ونظرت فيها ثم أعدتها الى جيبى مغتما وقـــد ذهبت الســـكرة وجاءت الفكرة ، وجعلت أقول لنفسى : « لعنة الله على العجلة واللهفة أما كان الأجدر انتظار صديقى سعيد ليتولى هـــذه الامور ؟ ! » ..

لم يكن هذا اللهو والعبث ليصرفنا عن النظر الى الوجه الآخر لباريس وجه العلم والمعرفة والحضارة . ويبدو أن هذه الدفعة كلها التى ارتادت أوروبا عقب الحرب العالمية الاولى وأوائل العشرينات كانت تدرك

بالغريزة ، دون تدبير أو تفكير أو تخطيط مسبق ، انها هى المنوط بها وضع أسس نهضة فكرية وعلمية سوف يقوم عليها البناء الحضارى لبلادنا فى ثلاثين أو خمسين سنة قادمة . وكان صديقى الدكتور سعيد من بين هؤلاء الرواد فى فرعه الذى تخصص فيه . وكان برغم عبثه هذا مجدا فى عمله وأبحاثه ، محترما بين زملائه من علماء المعهد ، الى حد أنهم أرادوا ضمه اليهم بمرتب فى المعهد . ولكنه رفض الانسلاخ من بعثته والابتعاد عن خدمة بلاده . وعلى الرغم من التحرر الفكرى الذى كان يحيط به والتعمق العلمى الذى كان يزاوله فان ايمانه الدينى كان راسخا لا يمكن زعزعته . وقد كنت مثله فى أول الامر . لم يكن الانغماس فى بيئة أهل الفن فى مصر بمؤثر فى العقيدة . على العكس ، ان الفنان دائما أقرب الى الايمان . ان حصولى على ليسانس الحقوق وتسجيل اسمى فى جدول المحامين واشتغالى بالمحاماة فى ذلك العهد الى جانب تأليف الروايات كان كفيلا أن يجنبنى كما جنب غيرى متاعب القلق الفكرى . ولكنى قطعت هذا الاتجاه الذى بدأت السير فيه بنفس مطمئنة لاحضر الى بلاد تضطرب فيها الافكار ويسودها القلق فى أعقاب حرب شملت العالم كله لاول مرة فى تاريخ البشر . كان من برنامجى أن أحضر لدكتوراه الحقوق الى جانب متابعتى لهوايتى الفنية . وقد اخترت القانون العام ، وهو أقرب الى الدراسات الانسانية التى تهمنى لاتصالها بالفن ، وهى تشمل الاقتصاد السياسى والتشريع الصناعى وتاريخ المذاهب الاقتصادية من أرسطو حتى كارل ماركس . وقد جرنى أرسطو الى دراسة الفلسفة اليونانية . وكارل ماركس الى هيجل والفلسفة الالمانية . وكان التركيز

فى ذلك الوقت على ماركس بالذات للحدث العظيم الذى شغل أوروبا وقتئذ ، وهو ثورة روسيا واهتمام مفكرى العالم بهذه التجربة الانسانية الحية وما تحمل فى طياتها من آمال وكان أملنا فى مصر يومئذ هو الخلاص من الاحتلال الانجليزى . فكان من بين ما استهوانى فى ماركس وقوفه ضد الامبريالية . على أن قراءاتى الخاصة كانت أشمل . والفهم اليها متجدد لان المعرفة أمامى فى باريس ملقاة فى الشوارع . وكلما تسكعت قادتنى قدمى الى مكتبة تلقى بكتبها على الافاريز . وعلى أفريز شارع « سوفلر » وجدت فى مكتبة اسمها « دلاجراف » كتابا زهيد الثمن فى تاريخ الفلسفة « قضاياها ومذاهبها » فى أكثر من ألف صفحة تأليف بول جانيه وجبريل سياى الاستاذين بجامعة باريس . انها الطبعة الحادية عشرة الصادرة حديثا فى عام ١٩٢٠ دفعت فيها عشرة فرانكات فقط . وعدت بها الى حجرتى بمثل هذا الكتاب فى حوزتى استطعت أن أكون فكرة شاملة عن مجرى التفكير البشرى .. ولكن الافاريز لا تكف عن عرض الكتب فى مجرى لا ينقطع سيله ، سيل المطر الجارى من تحتها . هذا هو فولتير وروسو وكل أعلام عصر التنوير بفرنكات معدودات . ولكن الذى حدث فى عقلى كان شيئا مخيفا . لكأنى فتحت نافذة فى رأسى هب منها أعصار هائل قلب كل شىء .. وذهبت الى صديقى الدكتور سعيد أفاجئه بقولى : « أجبنى حالا هل تؤمن حقا بالجنة والنار ؟ ! » فحملق فى وجهى كمن ظن أنى شربت أكثرت من الشراب . ولكنى لم أكن قد ذقت الشراب بعد . لا أنا ولا هو . وقد ظل هو الى آخر يوم فى حياته لم يذق الخمر . ولما كررت عليه السؤال . اكتفى بأن قال

لى : « هل حصل فى عقلك شىء ؟ ! » فقلت له بلهجة الجزم : « حصل كتير ! .. » وألححت فى السؤال ، واصر هو على الصمت . وعندما أفهمته اننـــا فى مرحلة يجب أن نطرح فيها كل شىء على العقل ليطمئن منـــا القلب . رفض الخوض فى مثل هذه الموضوعات . ولكنى كنت فى بيئة تفكير . ولاول مرة أشعر بشىء خطير حدث فى حياتى . هذا الانتقال السريع من عصر الى عصر . كنت كسمكة النيل الهادىء خرجت فجــأة الى موج البحر المتلاطم . خرجنا من جو فكرى راكد الى جو تبرق فيه الافكار وترعد . وتتخذ فيه العقول صورة الجنود . تركض ركضا فى كل حلبة من حلبات النشاط الانسانى . كل حاجز تتخطاه . وكان عقبـــة تقفز من فوقها . والركود عندها هو الموت . اذن كنا أمواتا ونحن لا نشعر . وأحسست بالعقل يتحرك . كالمهر حديث العهد بالجرى . فرح بحركة سيقانه يشب عليها ويحاول الجرى مع الخيول . ولكن صـــديقى الدكتور سعيد يريد أن يضع أمامى حاجزا لا ينبغى أن أتعداه . هذه الموضوعات التى لا ينبغى المناقشة فيها. وعندما قلت له : « وما الضرر ما دمنا مؤمنين ؟ فلنناقش كل شىء بحرية ما دام الامر سيؤدى بنـــا فى النهـــاية الى الايمان » . فلم يرق له كلامى . وقال بحسم : « نتناقش ؟ ! أسكت بلاش كفر ! ! وأراد أن يغـــير الموضوع بسرعة .. حقا ان الايمان مريح . ولـــكن من شيمة العقل أن لا يستريح . ولكى يضع سعيد حدا لما سماه تخريفى أخذ يغرينى بالذهاب معه الى مكان اكتشفه يطلع فيه القمر بدرا متألقا فى وقت الظهـــيرة . وقادنى من يدى الى مطعم فى آخـــر الحى . دخلناه وجلسنا الى مائدة من موائده اختارها

بعناية . كانت بالقرب منا فتحة فى الجائط كالطاقة أو الكوة أو النافذة الصغيرة تؤدى الى المطبخ ، وتخرج منها أطباق الطعام . ونبهنى صديقى الى هذه الكوة لان منها سيظهر البدر المكتمل بين لحظة وأخرى .. وفعلا لم تمض لحظة حتى ظهر فى الكوة وجه حسناء كأنه البدر ضياء .. انها الطباخة الجميلة بقبعتها الغالية البيضاء . الحق أننا لم نستطع أن نحول أنظارنا عنها طول الوقت . كان هذا المطعم متخصصا فى الأطعمة الفرنسية القديمة ذات الاسماء الغريبة فلم نفهم منها شيئا غير كلمة « كوستليته بالبطاطس ». فصرنا نحضر كل يوم ونجلس الى نفس المائدة ، ونرصد طلوع القمر من خلف الكوة . ونطلب الصنف الوحيد الذى لا نعرف غيره وهو الكوستليته بالبطاطس وأنظارنا مسددة الى الكوة ، وعيوننا معلقة بأشعة البدر المنير . وتكرر هذا كل يوم . نفس صنف الاكل ونفس التطلع الى البدر . الى أن كان يوم سبقت فيه صديقى سعيد الى دخول المطعم وتخلف هو ليشترى علبة سجاير . وجلست وحدى الى المائدة المعتادة انتظره ، وأتطلع الى بدرنا فى الكوة . واذا بصاحبة المطعم وكانت امرأة مسنة بدينة ضخمة قوية تجلس دائما أمام الخزانة على مقربة منا تلاحظنا من طرف خفى فيما يظهر ، وترقب أحوالنا دون أن تشعر ، قد نهضت من مكانها وقصدتنى قصدا وأمسكت بذراعى وأرادت أن تجرنى الى المطبخ .. وأنا أقاوم واتشبث بكل ما تقع عليه يدى ، وهى مصرة على جذبى وشدى مرددة كلمة « تعال .. تعال ! » وجاء صديقى سعيد ورآنى على هذا الحال . وما كدت أنا أراه حتى صحت به مستنجدا قائلا باللغة العربية : « الحقنى يا أخى ..

هذه الولية صاحبة المطعم ضبطتنا متلبسين بمغـازلة الطباخة وتريد جرى الى المطبخ للتحقيق ! » فاستشاط الدكتور سعيد غضبا وهم على المرأة الضخمة وخلصنى منها وقال لها بلهجة عنيفة : « ما هذه السخافة ؟ . ماذا فعلنا ؟ هل نحن قبلناها أو حضناها ؟ ! . لا قبلة ولا حضن . مجرد مغازلة بريئة من بعيد لبعيد ! . . » ولم يبد على المرأة أنها فهمت شيئا . فقد ظهر على وجهها الدهشة والاستغراب ثم جعلت توضح موقفها قائلة أنها لاحظت أننا لا نطلب كل يوم غير صنف واحد بعينه هو الكوستليته بالبطاطس ، فأدركت ، ونحن غرباء كما يبدو من هيئتنا ، اننا لا نعرف ما فى المطعم من أصناف أخرى قد تروق لنا اذا شاهدناها . وأخذتها الرأفة بنا فأرادت أن تدخلنى المطبخ لأرى بنفسى ماف الأوانى والحلل والصوانى من أطايب الاصـنـاف والالوان وانتقى منها ما يحلو لنا .. وهذا كل ما فى الأمر . وهى لا تدرى لماذا نرفض ونقاوم ونغضب ؟ !. فضحكنا . وأفهمناها اننا كنا نظن المسألة لها صـلـة بمغازلة الطباخة الحسناء . فضحكت بدورها وقالت أنهم فى باريس لا يقيمون وزنا لذلك . وأنه يسرها أن يكون فى محلها المتواضع شىء يثير الالتفات . وحكت لنا حكاية رجل مرت أمامه امرأة جميلة فرمقها بنظرة اعجاب مهذبة ، فغضبت المرأة وقالت له لماذا ينظر اليها هـكذا ؟ فأجابها على الفـور : وهل تريدين يا سيدتى أن تأتى وتذهبى دون أن يكون لوجودك مايدعو الى الاهتمام ؟ ! قلت لصديقى سعيد : المهم أن نكون مهذبين .. قال : لك فى الشرع نظرة واحدة ، لاحتمال أن يكون القادم أسدا ! .. ولكن النظرة الواحدة هنا

فى باريس لا تكفى .. لاحتمال أن يكون القادم اسودا من الحسان ! .. وضحكنا وعجبنا لما بدأ علينا من خوف وارتباك لمجرد الظن بأن صاحبة المطعم قد ضبطتنا نغازل الطباخة عن بعد بالنظر .. انها رواسبنا وقد جئنا بها . ففى بلادنا اليوم حجاب . ومن يصادف فى عربة حنطور رجلا وامرأة . حتى وان كانا زوجين . فان الشارع كله يجرى خلفهما متصايحا بمختلف الالفاظ وكأنها جريمة قد ضبطت ..

كانت المرأة فى فرنسا وقتئذ تجتاز مرحلة جديدة . ربما على أثر هذه الحرب العالمية الاولى ، واشتغال المرأة فى ميادين القتال بالتمريض والترفيه ونحو ذلك، وفى ميادين العمل فى المدن بما كان يقوم به الرجال الغائبون فى الجبهات . كانت المشكلة هى نزوع المرأة الى كسر قيودها الاجتماعية . فبدأت تظهر وخاصة فى مجالات العمل نساء قصصن شعورهن كالذكور مما وصفه الشاعر العربى القديم بقوله : « غلامية الشعر مطمومة » . ومما أطلقوا عليه هنا فى باريس وقتئذ كلمة : « الا جارسون » . ولكن المسألة لم تقف عند حد المظهر .. بل كان المطلب هو الاستقلال . استقلال المرأة بحياتها الخاصة وجسدها وسلوكها . أسوة بما للرجل من استقلال وحرية فى التمتع بحياته وبجسده لا يحده من العرف والتقاليد ما يحد المرأة . فهى كما كانت تقول تعمل عمله ولا تتمتع بحريته . وقام كتاب يعبرون عن هذه الحركة ، كما نهض روائيون يصورون هذه الشخصية الجديدة للمرأة . من ذلك رواية « الاجارسون » ثم رواية « جسدك لك » وهما من تأليف كاتب جرىء هو «فكتور مرجريت»

فقامت عليه القيامة وخاصة من الاوساط البرجوازية العريقة فى تمسكها بالتقاليد القديمة مما أدى الى طرده من عضوية الاكاديمية الفرنسية . وكان لذلك ضجة سمعناها هنا كلنا . كل هذا فى وقت كنا نطالب نحن فيه بالاستقلال والحرية . لا للمرأة المصرية التى كانت لم تزل محجبة ، وكانت تشارك فى الحـــركة الوطنية ومظاهراتها وجسدها ملتف بالملاءات والحبرات ووجهها مسدلة عليه البراقع واليشامك ، بل الاستقلال والحرية للامة كلها من وطأة الاحتلال الانجليزى .. وكان القلم الجرىء الذى نهض فى فرنسا لنصرتنـــا هو قلم « فكتور مرجريت » هذا أيضا فقد كتب كتابا سماه : « صوت مصر » صدره بمقدمة مشهورة لكاتب فرنسا العظيم « أناتول فرانس » .. كانت أول امرأة شاهدتها فى باريس تمثل هذه النزعة النسائية الجديدة هى عاملة التذاكر بمسرح الاوديون . أطلت علينـــا من شباكها الصغير بشعرها الاشقر المقصوص القصير وكان المنظر غريبا على مثلى . فأشتقت أن أحادثها . ولابد لذلك من أن أدعوها الى العشاء . ولكن كيف السبيل اليها ودون المثول بين يديها صف طويل من زبائنها الراغبين فى حجز الاماكن بهذا المسرح . وهى قلما تكون منفردة طوال ساعات العمل . وإذا أنا وصلت اليها فماذا أستطيع أن أقول لهـــا فى دقائق خاطفة ؟ .. خطر لى أن أكتب لهـــا ما أريد قـــوله فى شبه مسرحية صغيرة . فاستعنت بالله وبقواميسى ومعاجمى على كتابة هذه المسرحية بلغـــة فرنســـية بسيطة . وسميتها « أمام شباك تذاكرها » جعلتهـــا بطلتها وأنا زبون عابر يغازلها بأدب ويدعوها بلطف الى العشاء . ووقفت فى الصف الطويل ، وما أن بلغت

شباكها حتى وضعت أمامها المسرحية ، وانصرفت فى الحال ودهشت هى بالطبع لذلك الذى طلع اليهـا من بين الناس لا ليطلب تذكرة ، بل ليترك لها مخطوطا . وعدت اليها بعد يوم . وكانت قد قرأت المسرحيـة فابتدرتها بقولى : « أنـا المؤلف » . فابتسمت ثم ضحكت وسألتنى عما أريد ؟ .. فقلت لها : اخراج نهاية المسرحية ، أى الدعوة الى العشاء . فترددت . ثم أقبلت فى النهاية . ونشأت بيننا عـلاقة . دامت أسبوعين على أتم وجه .. ولكن كل شىء بدأ يتغير بعد ذلك . فقد تبين لى أن هذه العلاقة نشأت فى غفلة من الزمن أو على الاصح من عشيق لها كانت معه على خصام ، فلما تصالحا لم يعد لى مكان . وأغضبنى ذلك غضبا شديدا . وتمنيت لو أظفرنى الله بهذا العشيق الفرنسى الانيق لاشبع فيه لكمـا ولطما .. وفى ذات يوم كنت أجلس فى مجلسى المختار بقهوة داركور واذا بى المح فى الطريق رجلا كانت له فى ملاهى عماد الدين سطوة وشهرة . سمعت عنـه وعرفته معرفة عابرة لاختلاطى فى مصر بهذه الاوساط. كان أحد ملوك الليل المعروفين بشدة البأس . كان قوى البنية ضخم العنق كالمصارع . يدخل الملهى فترتج أركانه . واذا لم يدفع له أصحابه الاتاوة جعل عاليه أسفله .. ولما ضجت الحكومة من أفعاله نفته خارج البلاد فجاء باريس واشتغل بها عاملا يحمل البراميل . كان ذلك تقريبا فى نفس الوقت الذى جاء فيه أيضـا الشاعر الشعبى بيرم التونسى . جاء منفيـا هو الاخر. وان اختلفت الاسباب فالفتـوة البلطجى كان يحطم الملاهى بأفعاله ، والشاعر الشعبى كان يحطم فساد الدولة بأقواله . وكلاهما كان فى نظر الحكومة مستحقا

لنفس الجزاء وهو النفى ! .. ولم أصادف بيرم التونسى فى باريس فقد كان كما سمعت يعمل فى الضواحى بأحد المصانع أعمالا يدوية صغيرة . ولم أره قط فى الحى اللاتينى . أما صاحبنا الفتوة ملك الليل ، وكان اسمه « يوسف شهدى » فقد ظهر فى الحى ذلك اليوم، وما كدت أبصره حتي نهضت خلفه فى الحال واستوقفته وأجلسته على القهوة وطلبت له كوبا من البيرة . ولما استوثقت من اطمئنانه الى ، قلت له : « أنا طالب منك شغلة بسيطة » . فقال « أنا خدامك » قلت له : « كل طلبى انك تضرب لى واحد علقة سخنة » .. فما كاد يسمع ذلك حتى انتفض واقفا وهو يصيح بى : » كله الا كده ! .. اعمل معروف سيبنى فى حالى ، احنا هنا مش فى مصر ! سلام عليكم ! » وتركنى وانصرف ولم أر له وجها بعد ذلك أبدا ..

وغمرتنى الحياة فى باريس بدواماتها المختلفة . فقد كان للحرب العالمية الاولى من الاثار ما يصيب الانسان بالدوار ، فقد كانت هذه أول حرب بشرية يشترك فيها العالم كله بالاعباء العسكرية والمدنية، وينتج عنها تبعا لذلك من الافكار ما يقلب الاوضاع فى كل مجال من مجالات النشاط البشرى . ففى الادب والفن شاهدت مولد السيريالية وثورتها ضد المنطق العقلى . وكان زعماؤها من الشباب المقترب منا وقتئذ فى السن . كما عشت فى جو نخبة من الفنانين المجددين المجاهدين ضد العنت والرفض العام فى تلك الايام . كانوا فى الفن التشكيلى بيكاسو وفى الشعر كوكتو وفى المسرح بيتوييف . وأحيانا كانوا يلتقون فى عمل فنى واحد فى صورة مسرحية . وكان الفقر

والصعلكة والفكر المتحرر اطارهم الذى يتحـــركون فيه . وكنت مثلهم أريد أن أتحرر بفكرى وأن أحـــاول فهم كل ثورة جديدة فى الفن والفكر وكانت حيـــاتى قريبة من حياتهم من حيث الصعلكة والفقـــر ونهم المعرفة . كنت قد سكنت يومئذ فى ضواحى باريس حيث كانت الاقامة الكاملة مع المأكل والمشرب لا تكلفنى أكثر من ستة جنيهات فى الشهر ، يدخل فيهـــا أجـــرة تذكرة القطار الذى كان ينقلنى الى باريس كل يوم . كانت المسافة أقل من نصف الساعة . وكان القطـــار يســـير بالفحم ويتطاير دخانه الاسود الكثيف وينتشر فوق العربات . وكان للعربات دوران . دور علوى مكشوف اشتقت أن أصعد اليه . وصعدت مرة ولم أجد معى احدا . ولما وصلت وجدت الناس يحملقون فى وجهى . فنظرت فى مرآة بفناء المحطة فاذا بى قد انقلبت زنجيا من دخان الفحم المتطاير . ولكن هـــذا السكن البعيد كان يضايقنى فى السهر . كنت أخـــرج من مشاهدة مسرحية أو حفلة موسيقية لاكمل السهرة فى مقاهى الصعاليك من الفنانين الى أن يفوتنى آخر قطار وينصرف رواد القهوة ولا يبقى غيرى ، ويريد أصحاب القهوة اغلاقها او تنظيفها استعدادا للصباح، فلا أجد مناصا من الانصراف . ولكن الى أين ؟ رأيت ذات ليلة أن خير مكان آوى اليه حتى الفجر هو منزل من منازل حى سان دنيس . تلك المنازل ذوات المصابيح الحمراء على أبوابها . فان قاطناتها من العـــاهرات الرخيصات لا يمكن أن يرفضن طارقا فى أى وقت من أوقات الليل .. كانت الساعة قد قاربت الخامســـة صباحا . وطرقت الباب واذا بالتى فتحت عجـــوز شمطاء فى يدها مكنسة ، تكنس بهـــا المنزل وكادت

تكنسني أنا أيضا وهي تقول : « اذهب .. أغلقنا . والبنات دخلن للنوم ! » وسدت في وجهي الباب . وسرت في الطرقات مع عربات الرش حتى موعد قيام أول قطار .. فذهبت الى المحطة ، لأعود الى مسكني وأنام بينما أفواج العمال يخرجون نشيطين الى المصانع . ولكني عندما أنام نهاري فأني أسهر ليلتي كلهـا في قراءات مستمرة . ليلة كامله للصعلكة وليلة كاملة للقراءة . وكان رأسي قد امتلأ حتى كاد ينفجر . وكنت احيانا أكلم نفسي وأحاورها فيمختلف الافكار والاتجاهات والثقافات وقضايا ذلك العصر المولود حديثا من رحم حرب جبارة . كان الى جانب انقلابات الفن والادب انقلابات أخرى في المجال الاجتماعي الاقتصـادى . فقد هزت التجربة الثورية الروسـية أفئدة المثقفين وعقولهم الى حد اصبحت فيه كلمة « الشيوعية » الرداء الزاهي للمثقف قبل العامل . وأراد كل كاتب مرموق أن يذهب الى روسيا ليرى بنفسه المعجزة . في فرنسا كان « أندريه جيد » يتأهب لذلك . وفي انجلترا « برناردشو » . ولكن مصر المسدل فيهـا الحجاب ، لا على وجوه النساء فقط بل ايضا على عقول الناس ، لم تكن تعيش الا بأمل واحد هو : الخلاص من وطأة الاحتلال البريطاني . وكانت تبحث عن نفسها الضائعة وعن شخصياتها المدفونة تحت رمال الزمن . ولم يكن لها بعد كيان سياسي . فلما اضطرت بريطانيا تحت ضغط الثورة المصرية عام ١٩١٩ الى بعض التساهل رضيت أن يكون لمصر شيء من مظهر الدولة . فلقب السلطان فؤاد بالملك وأصبح له سفراء في الخارج . وكان لنا سفير في باريس هو أحد أفراد أسرته . وقرر الملك فؤاد أن يسافر الى الخارج

ليعلن الى العالم وضعه الجديد . فجاء الينـــا فى باريس ، فى زيارة رسمية . وقد أخطرونا يومئـــذ ، ـــ نحن المصريين المقيمين هنا ـــ أن نستعد لاستقباله فى محطة الوصول . وكانت محطة صغيرة فى مدخل باريس فرشت بالبساط الاحمر . وأوصونا أن نأتى كلنا بالطرابيش . وكانت حيرة لنا . فأكثرنا لم يكن يحتفظ بطربوشه فى باريس . فصرنا نجرى هنا وهناك نبحث عن طرابيش . وكان منظرنا يومئذ فى المحطة مضحكا. فمنا من كان طربوشه واسعا يصل الى أذنيه ومنـــا من كان الطربوش ضيقا فى نصف رأسه . ومنـــا من لم يجد غير طربوش مغربى بلا زر . المهم أن المحطة امتلأت بالرؤوس الحمراء . ونزل الملك فؤاد من القطار بعظمة الملك الشرقى ، وشـــواربه مدهونة بالكوزماتيك مبرومة مرفوعة الى أعلى يقف عليهـــا الصقر واستقبله كبار رجال الدولة الفرنسية وساروا به وهو يحيينا باشارات من يده ، الى أن ابتعدوا عنا ، فتفرقنا من المحطة ونحن نخلع طرابيشنا المضحكة ونحاول اخفاءها . ما عدا واحدا احتفظ بطربوشه وكان طربوشا حقيقيا ملائما لرأسه ولم يستعره من أحد . كان ذلك الرجل هو صديقى الدكتور سعيد . لم أكن قد رأيته منـــذ أسابيع . كان كل منا فى واد من أعماله ومشاغله . فلما التقينا فى المحطة تصافحنا بشوق وذهبنـــا معـــا الى القهوة المعتادة « داركور » . وأخذنا فى الحديث وأحاديث صديقى سعيد تدور أكثرها حول النساء ، والباقى حول الدين وهو بايمانه الذى يشبه ايمـــان العجائز ولا يناقش فيه قد دمغ الدين كل حيـــاته . فلم يذق الخمر ولم يعرف القمار ولم يفارق القرآن . ولا أدخل معمله الا وأجد المصحف مفتوحا الى جانب

أنبوبة الاختبار بمـــا فيهـــا من بكتريا ومكروبات . الا النساء فلا يجد فيهن حراما ولا ضلالا . وما أن فتح الحديث حتى بادرنى بخبر امرأة لم ير فى باريس كلها أجمل منها وجعل يصف لى محاسن جسمها ، وهى أحيانا نصف عارية وأحيانا فى غلالة حريريه رقيقة . ولما سألته : أين رأى كل هذا ؟ قال : فى الفندق المواجه لفندقه . فى حجرة بهذا الفندق . أبصر طيفها مرة من خلال النافذة المفتوحة ، ثم جعل يراقبها وهو مأخوذ بهذا الحسن والجمـــال أياما طويلة ! .. انها ليست وحدها لها عشيق لا يفارقها . انه شاب يابانى . أصفر الوجه قمىء القامة . وما الذى أغراها فيه ؟ ! النقود يا صاحبى النقود ! .. لم يفت سعيد بالطبع أن يتحرى عن هذا الشاب ويعجم عوده فعـــرف أنه مبعوث من دولته ويتقاضى منها مبلغا محترما لا ليدرس فى جامعة أو يلتحق بمعهد بل ليقوم بمهمة عجبنا لها : هى أن يبادر بترجمة أحدث المؤلفات التى تظهر فى فرع معين من فروع المعرفة الى لغة بلاده اليابانيـــــة ويرسل ذلك فورا الى الجهة التى تعنى بذلك فى اليابان ولم يذكر لى سعيد ما هو نوع هذا الفرع من المعرفة . هل هو الادب أو العلم أو الفن ؟ .. فقد كان الذى يهمه فى الامر كله حكاية المرأة . أما أنا فقد فكرت طويلا فى ذلك . لابد لهذا المبعوث من زملاء كثيرين لكل علم وأدب وفن ولكل لون من ألوان الحضارة الاوروبيـــة منتشرين ، لا فى فرنسا وحدها ، بل ربما فى كل أنحاء العالم المتحضر . ان اليابان تريد اذن أن لا يقـــوم حاجز بينها وبين ما يحدث فى عقل أوروبا والعـــالم المتحضر فى أى لحظة من اللحظات واليابان هـــذه تفصلها عن أوروبا قارات واسعة ومحيطات شاسعة .

فى حين اننا فى مصر نقعد مواجهين لأوروبا على الشاطىء الاخر من هذه البحيرة المسماة بالبحر الابيض المتوسط . ولولا هذه البحيرة أو البحر الصغير لكنا معها وكانت معنا قطعة واحدة نحن اذن أولى من غيرنا بأن نعرف كل ما يدور داخل ذلك العقل المتحرك بالاعاجيب أمامنا على الشاطىء الاخر . حدث يوما مثل ذلك على نطاق مصغر جدا ، يوم جاء هنا فى باريس شيخ معمم اسمه رفاعه الطهطاوى ، ترجم ونقل ما استطاع ترجمته ونقله من آثار الحضارة العصرية . ولكننا كنا نحتاج الى مئات من أمثال رفاعه الطهطاوى . كما كنا نحتاج الى الخطة المنظمة والى الاستمرار الدءوب ، والى اختيار العناصر التى يمكنها تشرب الحضارة فى مختلف نواحيها وملاءمتها مع خير ما نحتفظ به من مقومات شخصيتنا . وكان من بين زملائنا فى باريس يومئذ من تنطبق عليهم هذه الصفات . كما كان من بينهم نفر سجن نفسه فى التخصصات الدراسية أو المهنية التى جاء من أجلها فلم تبصر عينه شيئا آخر مما حوله من رقى فكرى وفنى وكان صديقى سعيد من هذا النوع الاخير . نبغ فى تخصصه الى حد جعل معهد باستور يعرض عليه كما قلت وظيفة ثابتة فيه بمرتب طيب على الرغم من جنسيته الاجنبية ولكنه رفض الانسلاخ من بعثته ، والاقامة الدائمة فى بيئة غير بيئته . وهو الرجل الذى لا يستطيع كما قال لى أن يعيش طويلا بعيدا عن المساجد والمآذن . فهو منذ الصغر ، يوم كان غيره من الغلمان يقرأون قصص ألف ليلة وليلة ، كان هو يفتش فى كتب والده الدينية . وعثر فى التصوف فطالعه وفكر فيه مليا ثم كتب مقالا عن الرهبنة فى الاسلام ، اعتبر فيه التصوف نوعا من

الرهبنة وبعث بالمقال الى جريدة « المقطم » فنشرته تحت عنوان ضخم : « الرهبنة فى الاسلام لفضيلة الشيخ سعيد .. » وأثار المقال ضجة بين علماء الازهر ، وأشتد النقاش بينهم ، بين موافق ومعارض . واتهم بعضهم بعضا بالزندقة . وكان والده من بين القراء المتابعين للنقاش العنيف ، دون أن يدرى أن الشيخ سعيد هذا الذى أثار الزوبعة وأوقع رجال الازهر بعضهم فى بعض ليس سوى ابنه الصبى ، الذى نسي أمر مقاله وانصرف يلعب مع زملائه الغلمان فى الحارة ! .. ولا أستبعد ذلك من صديقى سعيد ففيه من المتناقضات ما يحير .. دخلت عليه ذات صباح فى حجرته بالفندق ، فوجدته منكوش الشعر والحاجبين ، ذلك الشعر الاسود الغطيس على وجهه الاسمر الغامق ، وقد جلس على طرف السرير وأدلى بقدمين بلون الزفت والقطران فى طست كبير ، وحسناء قال أنها بلجيكية نزلت باريس حديثا لا أدرى كيف التقى بها ، قد ركعت على ركبتيها أمام الطست تغسل له قدميه .. فما تمالكت أن صحت به : « لعنة الله عليك متوحش همجى ! » وفهمت الحسناء من لهجتى وأشارتى انى أشتمه فضحكت ، وضحك هو، ولعب لى حواجبه على الطريقة الشرقية ، وكأنه يقول لى : « مت بغيظك ! .. » . وانسحبت أنا فى الحال مشمئزا من هذا المنظر ، منظر المتحضرة التى يعاملها صديقى الشرقى معاملة الجوارى ! .. وذهبت توا الى حجرتى الجديدة فى شارع « أولم » على مقربة من مبنى « البانتيون » العظيم . مدفن العظماء حيث كتب على جبهته بماء الذهب هذه العبارة المشهورة : « لعظماء الرجال تقدير الوطن » . كانت الحجرة

عند امرأة جاوزت الستين ، فى شقة من ثلاث حجرات ومدخل . تؤجر حجرة منهـا مفروشـة هى التى استأجرتها من أيام ولعل ما أغرانى بهذا السكن اعلان حائط كبير علق بالمدخل ، يعلن عن حفلة تمثيلية يرجع تاريخها الى عام ١٨٩٩ لمسرحية «راسين» الخالدة « أندروماك » ، على مسرح بلدية مدينة روان ، العاصمة القديمة لمقاطعة نورماندى . ولما سألت عن سبب لصق هذا الاعلان القديم على حائط المدخل ، أجابت المرأة العجوز فى زهو ومباهاة وهى تشير الى اسمها فوق الاعلان الذى أصفر وأغبر من القدم : هذا اسمى أنا . وكنت أنا أمثل دور « أندروماك » وكنت بالطبع جميلة وموهوبة . أما الان فانى أعيش على الذكرى ! .. حقا كان كل شىء فى هذا المسكن الصغير يفوح برائحة الفن ، كما يفوح عطر الوردة المحنطة داخل صفحات كتاب قديم . واستهوانى ذلك الجو . وأردت أن أعيش فى كنفه أياما ..

هذه صور خاطفة لانطباعات عمرها يقرب من الخمسين عاما .. ازدحمت فى رأسى وأنا القيها الان القاء سريعا على الورق .. ببساطة وبلا ترتيب . الخاطر يجر الخاطر . حسب ما تأتى به يد الذاكرة من بعيد وسط ضباب الماضى . وأنا أهيىء نفسى الان للقيام برحلة المستقبل . فالى الطائرة سفينة اليوم .. التى تمخر بنا الفضاء فى ساعات لا فى أيام ...

رحلة حول الماضى

ركبنا الطائرة فى اتجاه جنيف . لم اشعر بوقت يمر للهبوط . لا مكان هنا للاسترخاء والتامل على النحو الذى كنا نعرفه فى البواخر البطيئة . فى مثل هذه السرعة الخاطفة كيف يتأمل اذن اليوم المتأملون ؟ ! .. اغلب ظنى أن التامل والتفكير اليوم هما من قبيل الموجات الكهربائية او الشحنات المغناطيسية ، فى حين كان تأملنا وتفكيرنا فى عهد الوقت البطىء هما من قبيل التوليدات المنطقية والمولدات البخارية .. لم أكن قد رأيت جنيف منذ اواخر الثلاثينات .. لذلك بدا لى كل شىء فيها الآن جديدا .

ونقلتنا سيارة أجرة الى الفندق . واذا بى الاحظ أن سائق السيارة يكلم نفسه طوال الطريق بصوت مسموع ، وكأنه يجيب على أسئلة توجه اليه . فقلت فى شبه ذعر : سائق التاكسى مجنون ، وقد وقعنا فى شر اعمالنا ! .. ولكن مرافقى سرعان ما تنبه وطمأننى : بالسيارة تليفون لاسلكى . والسائق يخاطب به من يطلبونه . وعلمنا بعد ذلك أنه ما من سيارة تاكسى تسير بغير هذا التليفون اللاسلكى . وان الطلبات يتلقاها السائق وهو فى الطريق . فلا يوجد تاكسى يسير هنا على غير هدى . وعندما طلبنا ذات مرة من السائق أن ينتظرنا قليلا أمام أحد الحوانيت ، اعتذر ، وقال انه مطلوب باللاسلكى لاحدى المهمات السريعة . ودلنا على محطة أتوبيس . وعندما ركبنا الاوتوبيس ، لم نجد أحدا يطلب منا تذكرة . ونظرت الى بقية الركاب فوجدتهم جميعا جالسين هادئين هانئين لا تذاكر فى أيديهم ولا كمسارى يطالبهم . ومن يصعد يصنع مثلنا يجلس ، وما من مطالب . وليس فى المكان غير السائق وحده المنهمك فقط فى قيادة المركبة . قلت فى نفسى ولمرافقى لعل الاوتوبيس هنا بالمجان . ورأينا للاطمئنان أن نسأل السائق ، فسألناه ، فقال بدهشة : « أليس معكم تذاكر ؟ » .. تذاكر ؟ ! .. وهل طلب منا أحد تذاكر ؟ ! فابتسم الرجل بسماحة . وعند أول محطة ترك مكان القيادة ونزل معنا وأرانا جهاز بالحائط توضع فى ثقب منه عملة صغيرة فتخرج التذكرة من ثقب آخر ، ويختمها الراكب بنفسه من ثقب ثالث . وعلمنا كيف نصنع كل ذلك وتركنا وعاد الى عمله ، وقد فهمنا منه انه ما من أحد يطلب من راكب تذكرة أو يفتش أو يراقب أو يراجع .. لأن المفروض هنا الامانة . وما من راكب

يخطر بباله هنا سوء النية . الامانة والنظام ! .. كم يوفران على الشعب وعلى الدولة من جهد ومال ! .. ورحم الله شعوب الهرجلة وقلة الذمة ... !

على أن الذى أدهشنى أيضـــا فى سويسرا ، هو ما رأيته فى أكثر من صيدلية . انى معتاد على دواء ضد تصلب الشرايين مصنوع فى سويسرا . وقد عولت على انتهاز فرصة وجودى بها لاشترى كمية كافية منه . ولكن ما كدت اسأل عنه حتى وجدتهم يبحثون لى عنه بمشقة ، كما لو كان دواء أجنبيا . ولم أجده فى أكثر من صيدلية .. وعندما وجدته أخيرا ، لم أجد غير زجاجة واحدة منه لدى الصـــيدلى ، فصحت به : هــذا دواء سويسرى مصنوع فى بلادكم ، ونحن نستورده منكم ..

□ فقال : « هذا صحيح . ولكن الطلب عليه قليل من زبائننا نحن هنا » .

■ فقلت له : « اذن نحن نمرض ، وأنتم تصـــنعون لنا الدواء ! » .. وتركناه الى فندقنا الذى وجدنا فيه حجرة بغاية الصعوبة وبأبهظ النفقات . الفنادق هنا كلها مشغولة . كاملة العدد . بلد سياحى . يكتظ بالناس من مختلف الاجناس وتتدفق فيه العمـــلات الحرة والصعبة كالانهار لتصب فى بحيرة « ليمان » . هذه البحيرة الجميلة تتوسطها نافورة ، اقتبسنا عنهـــا نافورتنا التى فى النيـــل . ولكنهم هنا يعـــرفون كيف ينتفعون بالجمال ، ويدركون كم يدر الجمال من مال . نزهات البحيرة لا تنقطع . وفى كل ساعة يطوف فيها قارب بخارى بالسائحين . وركبنا قاربا من هذه القوارب طاف بنا ساعتين فى أرجاء البحيرة ، فرأينا نموذجا مصغرا للجنة الموعودة . على الضفتين تلال خضراء

تنتثر عليهافى شبه مدرجات طبيعية من غابات وأزهار قصور وفيللات وشاليهات ... وكان مذياع القارب يذيع علينا بين لحظة وأخرى وصف ما نرى .. فيقول : « هذا القصر الذى عن يمينكم فى تلك الضفة هو قصر الاغا خان .. وذلك القصر الذى عن يساركم فى الضفة الأخرى هو قصر المالى الشهير روتشيلد .. ونحو ذلك ممن أنعم الله عليهم فى الدنيا فجعل لهم قصورا فى جنة الارض « الفانية » ! .. وأدركنا بالحس المادى معنى قولنا ودعائنا نحن المؤمنين فى كل ركعة : اللهم اجعل لنا قصرا فى الجنة ! .. ولكنى انا شخصيا أكتفى فقط بفيللا صغيرة من هذه الفيللات المنثورة ، أو مجرد شاليه من هذه الشاليهات . وحبذا لو عجل لى الله هـذا النعيم فى جنة الارض أولا ليطمئن قلبى .. وتذكرت ما كنت قد قرأته فى عشرينات هذا القرن عن الموسيقى « سترافنسكى » .. قال انه ترك بلاده روسيا ، حاملا حقيبة كبيرة ممتلئة بالاغانى والانغام الفلكلورية لشعبه ، واستأجر فيللا على بحيرة « ليمان » هذه . وعكف عليها زمنا يستخلص منها جواهرها ، وينفض عنها سذاجتها وسطحيتها ، ويصبها فى أروع أساليب الفن الموسـيقى الذى درس أسراره وملك ناصيته ، فخرجت للنـاس تلك الايات الخالدة التى منها « بتروشكا » ، و « عصفور النار » ... جعلت أتأمل تلك الفيللات من حولى وأقول : لعل واحدة من بينها هى التى سكنها يوما ذلك الفنان العظيم ... ولكن هذا شىء طبيعى أن يولد فى مثل هذه الجنة الجميلة فن جميل ! .. جربنى يا الهى .. ضعنى فى جنة من جناتك ، وأسبغ على السكينة وراحة البال ، وأبعد عنى مسئوليات الأسرة ومتاعب العيال ... وجنبنى ما يؤذى الاسماع والابصار .. وما يهز الاعصاب

من سوء الاخبار .. ثم طالبني بفن جميل ! .. مرة واحدة فقط فى حياتى ولمدة أسبوعين عشت فى مثل هذا الاطار الطبيعى الجميل .. ولكن كل شىء مر بسرعة خاطفة وأنا ذاهل عن التفكير الجدى فى انتاج أى عمل فنى ... كان ذلك فى عام ١٩٣٦ .. فى الصيف .. ذهبت الى باريس . فمرضت . فعادنى طبيب ووصف لى تغيير الهواء فى أحد مصايف الجبال .. فكدت أهمل علاجه . فالجبال هذه لا أعرف عنها شيئا .. ولكنى تذكرت فجأة أن الدكتور طه حسين كان قد ترك لى عنوان مصيفه فى أحد جبال الالب بالسافوا العليا فى فرنسا ، على أمل ان نتقابل .. فلقد كانت الفرقة القومية قد أنشئت فى العام السابق ١٩٣٥ ، وافتتحت بمسرحيتى « أهل الكهف » . فرات الفرقة ، وكان مديرها الشاعر الكبير خليل مطران ، أن يكون افتتاح الموسم التالى بمسرحية يكتبها طه حسين . ولكن يظهر أن الدكتور طه اقترح أن اشترك معه فى تأليفها . فرحب مدير الفرقة . وأيدت اللجنة العليا المشرفة عليها ، وكان من بين أعضائها الشيخ مصطفى الرازق ، هذا الاقتراح . وجرى الامر فيما يبدو مجرى الجد ، وأنا فى واد آخر . فقد كنت قد سافرت الى باريس ومرضت هناك .. ولولا هذا المرض لما تذكرت عنوان الدكتور طه فى الجبل .. ولما فكرت فى جبال على الاطلاق . فأنا لا أفكر فى غير باريس . وأنا كما كان يقول الشاعر الالمانى « هاينى » أنا فى باريس كالسمك فى الماء .. وحزمت أمرى وسافرت الى الجبال ، كان المصيف المقصود قرية اسمها « سالانش » . فى حضن جبل متوج بالجليد . كان منظر الجبل الابيض والغابات الخضراء وأشجار البندق واللوز والكرز والابقار الحمراء

والاجراس الصغيرة فى أعناقها ترعى فى السهول .. أشياء أصابتنى بالذهول .. وكان طه حسين يرقب ذهولى فى مرح خفى وضحك خافت .. ونسينا ما جئنا من اجله . وجلس هو يصف فى فصل أدبى ما كان من امر وصولى وذهولى فيما سمى بعد ذلك بالقصر المسحور . جعلنا نتعابث فيه ونمزح ، ويرد كل منا على الاخر فى فصول تتعاقب دون تخطيط أو تأليف جدى .. الى أن فوجئنا ذات يوم بخطاب من خليل مطران تاريخه ١٨ أغسطس سنة ١٩٣٦ يقول فيه ما نصه :

« ... أتصوركما جالسين تتعاونان فى ابراز قصة المتنبى على ما سمعت فأغبطكما وأتمنى لو تسنى لى السفر وكنت كاتب يدكما . انا لنرقب منكما ما نرقب والفن التمثيلى مشوق أشد الشوق الى الفجر الذى ستطلعانه عليه فى اللغة العربية بعد ليله الدامس الطويل . فبارك الله فيكما وآتاكما الصحة والقوة وغاية ما أرجوه هو أن يمتد بى أجلى لاكون من اشهاد فوزكما ان لم يتيسر لى أن أكون من خدمته .. »

وتأثرت لرقة هذا الشاعر الكبير وتواضعه ، وأسفت لاخذه الامر بكل هذا الجد ، ونحن هنا نعبث ... ثم عجبت لحكاية قصة المنبى هذه .. انى أسمعها لاول مرة .. هل كانت هناك فكرة أن تكون مسرحيتنا المأمولة عن المتنبى ؟ .. لم يخطر على بالنا الحديث فى ذلك ... ولم نفكر قط فى مسرح ولا مسرحية . واستغرقتنا متعة الجبل . كنا نجلس تحت شجرة فى حديقة الفندق ، المنفتحة فيما أذكر على شبه حقل أو مرعى ممتد الى مرمى البصر ، يشقه طريق ضيق برى جبلى غير ممهد ، كنا نسير فيه على الاقدام الى أن نصل

الى البركة التى اصطاد فيها السمك .. وعندما كنت أريد الخلو الى نفسى وورقى لاكتب نصيبى من الفصل العابث ، أذهب الى المقهى الوحيد فى ساحة القرية .. محل صغير لتناول القهوة باللبن ، تديره وتخدم فيه شابة حسناء فى ثوب أبيض كالملائكة . قرية بسيطة . وفندق هادىء .. فندق « الجبل الأبيض » الذى نزلنا فيه . هدوء ينسى المرض ويريح الاعصاب . وهواء نقى معطر بأزهار الجبل البرية ، نشم فيه ريح العافية ... حرام أن نضيع كل هذا فى تأليف مسرحية ... وأغرانى المكر السيىء ان ألقى الحمل على غيرنا ... وغيرنا هنا هو المسكين شاعرنا خليل مطران ... كنت أعلم أنه كان قد أتم الجزء الاكبر من مسرحية ألفها عن هارون الرشيد ... فكتبت اليه أطلب ارسال ما تم من هذه المسرحية لنعاونه على اتمامها واعدادها للموسم . فهذا على الاقل عمل جاهز . أو على وشك التمام . وهى على كل حال طريقة لصرف النظر عنا وعن قصة المتنبى هذه ... ولكن يظهر أن الحيلة لم تجز عليه . فقد أرسل الى يقول ما نصه :

« ... تقبل منى اعتذارى عن عدم ارسال شىء اليك من الاوراق المنثورة فى قصة هارون الرشيد . فلا قبل لى اليوم حتى بالنظر الى أوراقى القديمه ولا بأعمال فكرى أدنى هنيهة . أصلح الله هذه الحالة ومتعك بالعافية ورد اليك تمام النشاط » ...

المهم فى كل هذا انى عرفت الجبل ومتعته وقدرته على أن ينسينا المرض . فلم أشعر فيه حقا بأى توعك فى الصحة . وغادرته الى سالزبورج لاشاهد فى المهرجان الفنى السنوى . مسرحية فاوست لجوته يخرجها

أكبر مخرج حى فى ذلك العهد فى العالم كله ، وهـو « ماكس رانيهارت » .. ثم الموسيقى بقيادة عظيم قادة العصر ، « توسكانينى » .. عمالقة فى الفن لا يجود بمثلهم الزمان ، رأيتهم بعينى ... ولكن المرض عاودنى فى سالزبورج ...

وتركنا جنيف لنذهب الى جبال الالب فى فرنسا . الى المصيف القديم فى قرية « سالانش » . حسب البرنامج الموضوع . لاطالع وجهها اليوم ونحن فى عام ١٩٧١ ، بعد غيبة طالت أكثر من ثلث قرن ... كنا قد طلبنا بالتليفون حجز حجرة فى نفس الفندق « الجبل الابيض » . ووصلنا فى المساء . وكان فى استقبالنا صاحب الفندق . ولكن الفندق لم يعد هو الفندق القديم ! .. أين الحديقة الصغيرة ؟ .. أين الشجرة التى كنا نجلس تحتها ؟ .. وما هذا المدخل ؟ .. وهذا البار ؟ .. وهذه الطوابق ؟ .. انه فندق كفندق المدن ... ونظرنا من نافذة حجرتنا فلم أجد الجبل المتوج بالجليد ، الذى كان يطالعنا منظره وأنا أفتح النافذة كل صباح .. بل طالعنى منظر شارع مرصوف بالاسفلت تمر فيه السيارات واللوريات ... واستبد بى الغضب فنزلت فى الحال أقابل صاحب الفندق واقول له : ما هذا ؟ .. أين الخضرة ؟ .. أين المراعى ؟ .. أين الأشجار ؟ .. انى ما جئت هنا لانزل فندقا كفنادق المدن .. فبدا لى أنه لم يفهم .. فحدثته عما أحمله من ذكريات قديمة لهذا الفندق .. يوم كان شيئا آخر .. فى بساطته البرية ... فأدرك ما أقصد .. وابتسم وقال انه كان صبيا فى ذلك العهد .. ويتذكر فعلا فى صورة غامضة تلك الاحراش والمراعى

والبساطة . لكن كل شيء قد تغير ... وسالانش لم تعد كما كانت في الماضي ... ووعد ان يدلني في صباح الغد على فندق جديد خارج البلدة يتوفر فيه ما أطلب من مناظر .. وقام بالفعل بما وعد . وقادنا في اليوم التالي الى فندق في صورة شاليه من خشب الاشجار . واسمه بالفعل اسم نوع من الشجر له ثمر تحبه الطيور وتحيط به مناظر الجبال التي يتوجها الجليد . فرضينا ووجدنا فيه الراحة والمتعة . متعة الطبيعة الجميلة المريحة للاعصاب . ومتعة الحياة العصرية بجهاز التليفزيون الذي ينقل الينا حياة باريس وملاهيها ونحن في أعالي جبال الالب . ولكني جئت للذكرى . فأخذت أجوس خلال القرية . أو تلك التي كانت قرية ، فاذا بها مدينة صغيرة . بها العديد من المقاهي والبارات والحوانيت والمحال الكبرى والتاكسيات والسينمات .. ورأيت الرافعات الضخمة شارعة في اقامة المباني للمصانع ... والعمال في كل مكان ... اذن هو التقدم . والتقدم هو أنبعد عن الطبيعة . وعندما سألت عن البلاج ... ولم يكن من الممكن ان أعرف بنفسي الطريق اليه . وقد تغير كل شيء .. فاستأجرت سيارة تاكسي . انطلقت بنا في طرقات مرصوفة بالاسفلت ... ووصلنا الى البركة القديمة فاذا بها قد سورت ، والدخول اليها بتذاكر ، واتخذت شكل البلاج فعلا ، بما وضع فيها من شمسيات كبيرة ملونة مرصوصة وسابحين وسابحات بالمايوهات . فرجعت . ولم أجد جدوى في تذكر شيء .. وطول الطريق اري جديدا لم يكن موجودا ... فأبنية النوادي الرياضية تصادفنا في كل خطوة .. لكل الاعمار .. للاطفال والغلمان

والصبايا نواديهم وامام الابواب مئات من الدراجات أجيال من الاطفال والشباب تبنى أجسامها بالرياضة ، لتحمل بناء المستقبل . وكيف ستكون أيضا صـــورة المستقبل فى هذه البلاد ؟ .. وأنا أبصر فيها اليوم الطائرات تمرق بين الجبال الشم غير حافلة بشموخها الجليل .. لا .. لم تعد فائدة فى تذكر المــاضى هنا .. فلنعش الحاضر . وعشناه بعد أن يئست من العثور على شىء يبعث لى طيفـــا من أطيـــاف ذلك الامس البعيد ...

قضينا فى الجبل ما استطعنا من مدة ، نرم صحتنا وننعم بتلك الطبيعة التى لم تقو يد الانسان على المساس بصفائها ، حتى لم يبق من أجازتنا غـــير عشرة أيام أخيرة ، خشينا أن تفلت منا هنا قبل أن نذهب الى باريس . وذهابى الى باريس ضرورى . لان برنامجى يقوم على زيارة المكان الذى نبتت فيه « زهرة العمر » وأردنا قبل انتقالنا أن نحجز حجرة فى فندق باريس . فكان المستحيل بعينه . ظلت عاملة التليفون تطلب لنا فنادق باريس . فاذا الرد دائما : لا .. لاتوجد حجرة خالية .. كل فنادق باريس مشغولة . كاملة العدد .. وأخيرا وبعد جهد وجدنا من يقول توجد حجرة واحـــدة فى فندق كبير يحوى مئات الحجرات . فسافرنا اليه فى الحال . وما كدنا نصل حتى قالوا لنا فى الاستقبال : الحجز هو لليلة واحدة فقط . وفى الصباح يجب اخلاء الحجرة . لانها محجوزة لغيركم بعد ذلك . وها هى ذى أكوام البرقيات من مختلف البلاد للحجز . قلنـــا نريد أن نمكث فى باريس عشرة أيام . فضحكوا .. وقالوا لا يوجد اليوم فى باريس فندق يؤويكم طول المدة .

كل ما يمكن أن تأملوا فيه هو ليلة واحدة . وربما وجدتم ليلتين . وهل تلقون بنا وبأمتعتنا فى الطريق ، ومعنا النقود ، وعلى استعداد لدفع ما تطلبون ؟ .. فلم يفد الكلام ولم تنفع المناقشة . باريس اليوم متخمة بالسائحين . من كل أنحاء العالم . انها ملتقى الجنس البشرى كله .. ماذا تقدم للناس ؟ .. تقدم لهم حصيلة الحضارة الانسانية . مضغوطة فى مدينة واحدة . انها كما كنت اقول وانا أشاهد الأموال تتدفق فيها ، رغم الغلاء الفاحش الذى فرضته على القادمين : انها تبيع الحضارة . باغلى الاثمان . فى الايام العشرة التى مكثناها فى باريس لم يقبلنا فندق أكثر من من ليلة او ليلتين . لم نفتح الحقائب لكثرة انتقالنا بين الفنادق .. والقلق يساورنا كل صباح . لا ندرى بأى مكان سنبيت . وهل سنجد السقف الذى نمضى تحته الليل ؟ ! .. وسمم هذا القلق كل وجودنا بباريس .. فلم نستطع أن نحظى منها بما كنا نطمع . وقبل أن تخور عزيمتى وانا فى هذه السن ، سارعت الى زيارة مسكنى القديم فى شارع « بلبور » ، لانشط ذاكرتى . كان مسكنى هذا فى عشرينات القرن ، مثار دهشة وتندر بين أصدقائى يومذاك . فهو يقع فى حى منعزل من طرف بعيد آخر المدينة . كان أبعد من المقابر . المشهورة فى باريس باسم « بيرلاشيز » كان قطار المترو يمر أولا بمقابر بيرلاشيز قبل أن يصل الى ميدان « جامبتا » . فأنزل فى هذا الميدان ثم أسير على قدمى مشوارا طويلا قبل أن اصل الى شارعى المسمى « بلبور » . ما من مترو كان قد امتد الى هذه المنطقة . وما كان أحد من أصدقائى قد وطأت قدمه هذا المكان . صديق واحد هو الدكتور حسين فوزى ،

كان يزورنى هناك . وكان يقول لكل من يسأل عنى : تصوروا أنه ساكن بعد « القرافة » ! .. ما من مصرى منذ رفاعة الطهطاوى الى اليوم قد سكن مثل هذا الطرف النائى من باريس .. !

كنت فى اشد الشوق الى رؤية شارعى القديم هذا ونحن فى عام ١٩٧١ .. فركبت المترو الى ميدان جاميتا كما كنت أفعل منذ أكثر من خمسة واربعين عاما . فوجدت الميدان بالطبع هو الميدان ولكنى لم اجد المطاعم التى كنت أتناول فيها غذائى . مطاعم ومشارب أخرى . وهذا طبيعى . واختلط على الامر فى شأن الشوارع . أين الشارع الذى كنت أسير فيه طويلا حتى أصل الى « بلبور » ؟ .. لم أعرف .. واضطررت الى سؤال أحد الشرطة فدلنى على الطريق . فسرت فيه مشوارى . الى أن وجدت أخيرا شارعا كبيرا يسمى « بلبور » . ولكن لدهشتى ليس هو الشارع القديم الذى كنت أسكنه .... اعجب من ذلك انه الان ليس فى وضعه السابق . فقد كان قديما فى وضع أفقى . وهو اليوم فى وضع رأسى . مختلف كل الاختلاف .. عبثا حاولت ان أتعرف على ملامح هذا الشارعالذى يحمل اسم (بلبور) ، انه شارعآخر لاعلاقة له على الاطلاق بالشارع القديم . أما فندقى الذى كنت اقطنه والموصوف فى « زهرة العمر » فلا وجود له . بل لا وجود لاى منزل مما كنت أعرف فى سالف الزمان . لقد تملكتنى الدهشة . وسألت صديقى حسين فوزى ولا شك أنه ذهب الى تلك المنطقة ورأى فيها ما رأيت . وانى لادعوه ملحا ان يزورها فى احدى رحلاته القادمة . وسوف يرى العجب ! .. لم تعد

هذه المنطقة بالنائية . فقد امتد اليها المترو . واصبحت لهذا الشارع الصغير المتواضع شبه المجهول قديما ، محطة مترو الان تحمل اسمه ، وتليق باتساعه اليوم وأهمية فى الحى كله . مترو بلبور ! .. ضاعت الملامح القديمة . وتغير كل شيء .. وتذكرت دعوة الاصدقاء فى شتاء هذا العام لزيارة شارع سلامة بحى السيدة زينب ، الذى جاء ذكره فى « عودة الروح » .. فذهبنا وكان معنا ايضا الدكتور حسين فوزى . واذا بنا نجد نفس المنزل ورقمه ٣٥ ، والشارع واسمه ووصفه كما كان بالضبط ... حتى المنزل المجاور بالشربية اياها ... ما من شيء تغير . أكثر من خمسين عاما . وكل شيء كما كان . وكأن الزمن جالس امام باب المنزل يدخن النرجيلة .. !

ولكنى هنا فى شارع بلبوز حائر .. أسأل الناس وما من مجيب . مجرد السؤال نفسه يبدو مضحكا . أنا نفسى انقلبت فى نظر نفسى الى شخصية روائية مضحكة . يتحدث عن أشباح . والعالم يموج حوله بالتقدم . والعمارات الشاهقة والاحياء الجديدة قد تجاوزت شارع بلبور الى مسافات بعيدة ومحطات أخرى عديدة للمترو قد تركته خلفها بمراحل مديدة .. وأنا أقول كان هنا فندقى .. كان هنا بيتى .. فيبتسم لى المارة ويبتعدون . كأنى صرت أحد أشخاص أهل الكهف . كيف يصبح المؤلف هو نفسه شخصية من شخصيات قصصه ؟ ! .. انى الاحظ احيانا هذه الظاهرة عندى .. يحدث لى عكس ما يحدث للاخرين . لقد اعتاد الكتاب أن يعيشوا الحياة أولا . ثم بعد ذلك يكتبونها .. اما أنا ففى كثير من الاحيان أكتب الحياة

أولا ثم أعيشها بعد ذلك . ولذلك أصبحت أخاف ما أكتب .. خشية أن أكون أسطر بيدى مصيرى ...

تركت هذا الحى بماضيه وحاضره . وجعلت استجلى وجه باريس اليوم . ما أعرف منه وما أجهل . ان باريس ليست الماضى فقط ولا الحاضر فقط . انها الماضى والحاضر معا . انها الماضى الجميل الذى يجب أن يبقى ، والحاضر المتغير ، ليلائم التقدم . أحياء قديمة باقية برمتها كما عرفتها من قديم . وتماثيل كانت شامخة وظلت شامخة .. بل وبعض دور المسارح والسينما لم تزل باقية فى أماكنها تحمل أسماءها المعروفة من مائة أو مئات الاعوام .. ان التقدم فى بلاد الحضارة ليس معناه الهدم والازلة فى كل الاحوال ، بل أيضا معناه الترميم والاضافة . ولذلك نجد أحدث المسرحيات العصرية تعرض جنبا الى جنب مع المسرحيات الكلاسيكية أو القديمة العهد . لذلك عجبت لعرض ونجاح مسرحية « الحلم » لسترندبرج ، وهى من مسرحيات أول هذا القرن . يعرضها الان مسرح الكوميدى فرانسيس . حرصت على أن أشاهدها ، لمعرفتى لها قراءة ، ولعجبى أن يفكر فى اخراجها أحد فى العصر الحاضر ، الذى يزخر باهتمامات أخرى تعكسها الاتجاهات الفنية المعاصرة . ولكن يظهر أن الحضارة الحقيقية مائدة حافلة بكل الالوان . وان التخلف هو تخلف المائدة فى عرض الالوان المختلفة . والاقتصار على لون دون لون . واطفاء شمعة لاشعال شمعة ، ومحو عمل لتقديم عمل .. وازالة حجر لوضع حجر ... وهكذا يبدو البناء الحضارى ناقصا ، ومائدة الثقافة عرجاء . نلاحظ ذلك أحيانا عندنا فى مجال الفنون : فالمسارح كلها تقدم

لونا واحدا ، واتجاها واحدا ، وهى الكوميديا الاجتماعية الانتقادية . وهذا شىء طيب ولا جدال .. ولكن البناء الثقافى والحضارى المتكامل فى أى أمة راقية ، يجب أن يشمل الكلاسيك والروائع القديمة . لان الشعوب تتكون بنيتها الحضارية من عناصر الفكر الخالد على مر العصور . وتتماسك شخصيتها بالدسم والبروتينات والفيتامينات المختلفة الموجودة فى نتاج فكرها وفكر الانسانية فى مدارسها الخلاقة جميعا . لان شخصية أمة ليست عنصرا واحدا فى حلقة واحدة ، ولكنها جملة عناصر مختلفة تتكون فى حلقات العمر المتعاقبة ... لذلك كانت الكلاسيكية والواقعية والرمزية ونحو ذلك كله عناصر يتكون منها الفكر الحضارى كله . وأروع مافى كل عنصر فيها يجب أن يقدم ضمن الغذاء . وهو يقدم فعلا دائما بكامل أنواعه فى كل متحف من متاحف الفن التشكيلى ، وفى كل تأليف وفى كل عرض فى تلك البلاد المتقدمة جميعا من غربية وشرقية . لهذا كما قلت ذهبت الى الكوميدى فرانسيز اشاهد هذه المسرحية القديمة . وكانت تمثل بنجاح طول العام . فاذا بالمسرح مكتظ بالمشاهدين فلم أجد محلا مريحا . وقبلت ما وجدت . ورفعت الستار عن المنظر الأول وهو منظر ابنة الاله أندرا وهى تهبط من السماء الى الارض لتشاهد أحوال البشر . وكان منظرا رائعا : هذا الهبوط من السماء المزينة بالنجوم اللامعة وملابس ابنة الاله أندرا وتصميمها العجيب ، وحديثها مع أبيها وهى تلمح الارض بغاباتها الخضراء وجبالها الشماء وتدهش لجمال هذا الكوكب ، وأبوها يذكرها بمهمتها ويقول لها : اهبطى واسمعى وابصرى ثم عودى

لتخبرينى هل شكاوى أهل الأرض لها حقا أساس تستند اليه ؟ !

وتمضى المسرحية فى مناظرها المتعددة . وأنا أقول فى نفسى : هذا حقا هو الاخراج . انه الشاعرية والايقاع ليس بالملابس وحدها ولا بالديكورات ولا المجموعات ولا بكل تلك الوسائل الفنية التى تبدو ذكية وبارعة . هذه الاشياء هى الكيان المادى للعمل الفنى . ولكن يبقى ذلك الروح الكامن داخل هذا الكيان . كيف يمكن ابراز هذا الروح . انه ليس المعنى المستخرج من النص . انه ليس المضمون . انه ليس التفسير . انه شىء أخف واشف . لا يمكن أن يلمس أو يمس . انه يبعث . كالعطر أو كالضوء . انه ذلك الذى أسميه الشاعرية . . . وجدت هذه الشاعرية تنبعث أيضا من فيلم سينمائى هذه المرة . . . شاهدته فى اليوم التالى فى سينما بالجراند بولفار . فيلم عن قصة لتوماس فان اسمها « موت فى فنيسيا » للمخرج الايطالى فيسكونتى . . كيف يمكن للسينما أن تصل الى الشاعرية . هذا سر هذا المخرج الموهوب . . . أمامى أشياء كثيرة فى الفن والثقافة اريد أن أراها فى الايام القليلة التى بقيت لى فى باريس . لكن وأسفاه . . أصبت فجأة بروماتزم فى مفصل ساقى اليمنى . . . حدث لى ذلك دون انذار . ولست ادرى كيف حدث . ذهبنا لتناول العشاء فى مطعم وانا على اتم حال من الصحة . نظرت فى قائمة الطعام فوجدت صنفا راقنى اسمه سمك ترويت باللوز . والترويت هذا سمك معروف وخاصة فى انهار الجبال . وكنت اطمع فى اصطياد ولو واحدة منه فى بركة « سالانش » فلم أصطد الا نفسى كما كتب طه حسين وهو يرى سنارتى

لم تشبك فى فم السمكة وشبكت فى ملابسي ! .. ولكن كيف يطهى سمك الترويت هذا باللوز ؟ .. هـذا ما أردت أن أعرفه وأذوقه . وطلبت هذا الصنف وأنا متردد . ترى هل سيكون هذا السمك طازجا ؟ وطمأنت نفسي بالجو البارد ووجود الثلاجات القوية . ولكنى لم ألبث أن رأيت الطاهى قد ظهر وفى يده شـبكة صغيرة أدلى بها فى حوض بجوارنا حسـبته لمجـرد الزينة ، واذا به عديد من أسماك الترويت واستخرج بشبكته سمكة حية تتلوى وتتلعبط وابتسم لى قائلا : هذه سمكتك . وذهب بها ليلقيها حية نابضة فى الماء المغلى ، ويأتى بها الى فى طبق محشوة باللوز المقشور المبشور . وأكلتها بلذة ونهم . ومرافقى ينظـر الى ثم الى الحوض ويقول : « سبحان الله .. منذ قليل كانت هذه السمكة المسكينة حية تلعب مع اخواتها فى هذا الحوض ، فشاء حظها العاثر أن يوقعها هى فى الشبكة لتقدم اليك فى الطبق مسلوقة ! .. » ونهضنا منصرفين . فما كدت أبلغ باب المطعم حتى شـعرت بالوجع فى مفصلى . لا أريد أن اقول انه ذنب السمكة . ولكن هذا هو الذى حدث . وصرت أمشي وأنا أتألم ... وباريس عندى هى السير .. السير وما من عصـا فى يدى اتوكأ عليها فباريس لا تعرف العصى اللهـم الا عصى العميان البيضاء . أما بقية الناس فلا يحملون سوى المظلات عندما يهطل المطر . بلاد لا تعرف العصا ولا المنشة ولا المسبحة ... أيدى الناس طليقة . علامة الحركة والصحة والنشاط .

لكن ما الذى جرى للناس هنا ؟ ! رأيت أشياء لا أفهمها جيدا . دخلت احدى دور السينما القريبـة

من منطقة سكنى ، حتى لا أجهد ساقى . كان موضوع الفيلم العلاقة الجنسية بين الزوجين . فيلم تسجيلى . ولكنه طويل . اعتبر هو الاساسى ، والمعلن عنه اعلانات غطت الجدران . طبيب ويظهر أنه طبيب حقيقى يشرح العملية الجنسية لزوجين شابين ، جاءا يقولان له ان هذه العلاقة بينهما فى أول الامر لم تكن مرضية تماما لجهلهما بأسرارها . وهنا أخذ الطبيب يشرح لهما الأوضاع ، مستعينا بالصور والرسوم . ثم جاء الجزء الثانى من الفيلم غاذا به التطبيق العملى من الزوجين لما سمعاه وعرفاه من الطبيب . فظهرا عاريين يمارسان هذه العلاقة فى أتم وأكمل وجوهها ... العجيب فى الأمر عندى كان هو الجمهور المشاهد من حولى . لم تصدر عنه حركة ولا همسه ولا ضحكة ولا سعلة . سكون مطبق وصمت رهيب . كما لو كان حقا فى قاعة محاضرة علمية . قلت فى نفسى ربما أخذ الامر هذا المأخذ ما دام فى الموضوع طبيب حقيقى يشرح ... ولكنى صادفت فى الحى سينما أخرى تعرض فيلما بعنوان « الزواج الجماعى » .. ليس هو بالفيلم التسجيلى وليس فيه طبيب . انما هو موضوع روائى . جماعة من الازواج الشباب ، اتفقوا فيما بينهم على أن يعيشوا معا فى حياة مشتركة ، وأن يتقاسموا كل شىء فيما بينهم ، وأن يناموا فى حجرة واحدة ، ونساؤهم مشاع لمن شاء منهم . للزوج أن يعاشر ما تروق له من زوجات زملائه . والزوجة أن تختار ما تريد من أزواج زميلاتها . كل ذلك بالرضا التام من الجميع . وكأن الأمر رغيف خبز تتناوله الايدى والافواه ... ثم شاهدنا هذه العلاقات الجنسية تتم أمامنا بكل تفصيلاتها التى تخدش الحياء . ولكن الجمهور ..

الجمهور يا ناس .. هذا هو موضع عجبى الحقيقى .. نفس التصرف .. السكون المطبق والصمت التـام .. لا همس .. ولا تعليق .. ولا ضحك ... ولا حتى تنفس يسمع ... وخرجنا ونحن نكتم ما بنـا وننمج فى صفوف هذا الجمهور وهو خارج من القاعة ، علنا نسمع منه نكتة أو اشارة أو تلميحة الى ما شاهد منذ قليل ... لا شىء ... وكأنه خارج أيضا من قاعة جامعة ... كيف نقابل الجمهور باحترام ما يبدو لنا أنه غير محترم ؟ ! وتشككنا فى معنى ما شاهدنا . وقلنا لعل هذا الجمهور فهم شيئا آخر .. ولكن ماذا والعملية أمامنا لا تقبل أى تفسير ! .. « هل الموضوع فى ذاته لا يهم ؟ والمهم نظرتك له ؟ ! » كنت ادخل على المرحوم الدكتور سعيد وهو فى معامل تحليـله بالصحة .. وعينة من عينات البراز أمامه يعكف عليها بحرص .. فأشمئز وأتأفف وأصب عليه وعلى عمله اللعنات فيقول لى : « اسكت ايش عرفك ! هذا شىء ثمين جدا » ... فالشىء الواحد فى نظرى يدعو الى التأفف والاشمئزاز وفى نظره يدعو الى الحرص والعناية! .. لكن ما هى وجهة نظر هذا الجمهور فى تقبله الرزين لمثل هذه المشاهد ؟ . لا تفسير عندى سوى أن جماهير هذا العصر العلمى فى بلاد العلم تريد أن تعرف كل شىء يتعلق بالانسان ، وأنه لا حياء فى العلم عندهم ... كان من الممكن أن أفسر ذلك أيضا بأنه حب الدعارة .. ولكن ذلك كان يقتضى أن يكون هذا الجمهور المشاهد داعرا ، ويتصرف ازاء عرض مثل هذه المشاهد تصرفات تبدو منها روح الابتذال ، ولو بأسلوب مخفف أو مهذب . ولكن شيئا من ذلك لم يحدث . بل كان هذا الجمهور ينسج من حوله جوا محترما مفعما بالجدية ، أشعرنا

فعلا وصدقا كأننا فى قاعة علم لا فى صالة لهو ... وجعلت أفكر فى الامر مستعرضا ما سبق من حضارات كبرى فوجدت بعض التشابه . ان سمة الحضارة فى كل عصر هى البحث عن الحقيقة ، ولا حياء فى البحث عن الحقيقة ، وخاصة فيما يتعلق بالانسان ويتصل بأسباب وجوده المادى والروحى . فكانت فى حضارة مصر القديمة والهند ترسم وتنحت فى المعابد بعض الاعضاء التناسلية رمزا للحياة . كانوا يعرفون اذن هم أيضا أن « لا حياء فى الدين » ... بل ان الشعر العربى القديم وكتب الادب لمثل الجاحظ وابن عبد ربه كانت تتحدث عن الجنس كما تتحدث عن الطعام . وكانت اكثر الكتب الادبية لا تكاد تخلو من باب للاطعمة وباب للحياة. وما كان أحد وقتئذ يرى فى ذلك بأسا أو حرجا .. ولكن يظهر أنه عندما تأخذ الحضارات فى الانحطاط تكثر المحظورات ، وتسدل البراقع على كثير من الموضوعات، الى أن تمتد الى روح المعرفة نفسها وعادة البحث فتصيبها بالشلل . وبهذا يقتل العلم وتنحسر الحضارة ... ليس معنى هذا هو فتح الباب فجأة للجنس الصريح أمام جماهير لم تتهيأ بعد لتقبله بمعنى مرتفع . فان فتح النافذة فجأة أمام صدر مريض طال نومه قد يصيبه بصدمة أو علة .. ولكن المطلوب هو الاعداد الطويل المدى لدخول الهواء الطلق . وذلك بتعويد الناس شيئا فشيئا على احترام البحث الحر ، وافساح الصدر لمناقشة الحقائق الحيوية ، وعدم التهيج والتعصب واقفال النافذة بعنف أمام من يريد ادخال نسمة صغيرة ... اضافة أخرى لتفسير السلوك الوقور لهذا الجمهور أمام هذه المشاهد . هى أنه كان ينظر اليها ليس فقط باحترام بل باهتمام . ولماذا الاهتمام ؟ .. اذا

ذكرنا أن من سمات الحضارات كذلك : الاتقان ، ازددنا فهما للامر . لان الاتقان هو المكمل أو النتيجة لحب البحث . فأنت لكى تتقن شيئا لابد أن تعرف اسراره ، ولكي تعرف أسرار لابد أن تبحث . ومن يلاحظ الحضارة الكبرى للعالم اليوم فى الغرب والشرق يجد هذه الظاهرة : لا يمكن ان يغتفر لأحد صغر أو كبر ما نسميه « الطصاقة » أو « الكفاتة » أو العمل بالصادفة أو بالبركة أو حيثما اتفق . كل عمل يجب أن يكون متقنا . وكأنهم هناك عرفوا الحديث الشريف : « ان الله يحب اذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه » .. ولذلك كانت صناعتهم الكبرى المتقنة التى تغزو الأسواق ، بما عرف عنها من اتقان .. حب الاتقان او عادة الاتقان لكل شيء .. تدفعهم اليوم الى ان لا يتركوا شيئا للمصادفة ، وان يعرفوا أسرار ما يمارسونه من أعمال ، وأن يمزقوا كل حجاب يحول بينهم وبين معرفة هذه الاسرار .. والحياة الجنسية هذه ظلت قرونا تعتبر خطيئة ، ثم وضعت فى الظلام وهى فى نفس الوقت من الصق الاشياء بحياة الانسان ، ومن أشدها تأثيرا فى وجوده .. فما دامت لها هذه الأهمية ، وهذا الاثر كيف اذن تترك أسرارها بلا بحث يؤدى الى اتقان . فمنطق الحضارة اذن يقضى بأنه اما أن يصرف عنها النظر ولا تمارس وتترك للظلام ، واما أنه لا سبيل الى تركها ، وان ممارستها من ضرورات الانسان .. وعندئذ يجب أن تعالج وتدرس وتتقن الاتقان الذى يبذل فى صناعات أقل اتصالا بتصميم الانسان ، فلا نجعل ممارستها رهنا بالظروف والمصادفات والجهل والاشاعات .. بل تعامل معاملة غيرها من وجوه النشاط الانسانى فى هذا العصر العلمى ، الذى يضع كل ما يمس

الانسان تحت أشعة الضوء الكاشف ، ويزوده بالخبرة التى تنفى الجهالة ، وتكفل له الوصول بكل ما يهمه وينفعه الى ما يمكن بلوغه من كمال واتقان ... ان كلمة الاتقان لها عندى قيمة كبرى ، وفى مفكرتى الصغيرة التى لا تفارق جيبى أضع الحديث الشريف الذى يحض على اتقان العمل . لان هذه الكلمة هى أساس التفوق الحضارى . بل هى أساس ثروة الامة فى كل انتاج صناعى أو علمى أو فنى أو معنوى .

وعلى ذاكرتى صورة صغيرة قديمة لاتقان الشخص فى عمله وما يمكن أن يجنيه المجتمع معنويا من ذلك . هى صورة لصاحبنا الدكتور سعيد أيضا . كان على الرغم من هذه الظاهرة ، من اشد الناس تمسكا بالدقة والاتقان . عين مديرا لمستشفى الكلب ، فجعل من هذه المستشفى نموذجا فريدا فى النظام والنظافة والدقة . وذاع أمر هذا المستشفى بين المسئولين ولم تكن قد أنشئت فى ذلك الوقت وزارة الصحة . بل كان الموجود مصلحة الصحة وتتبع وزارة الداخلية فكان اذا وفد على مصر زائر كبير من الحكام الاجانب أو كبار الاطباء أو العلماء فى الخارج قادوه الى زيارة مستشفى الكلب أولا حتى يخرج بأثر طيب عن مستشفياتنا .

وكانوا يسألون الدكتور سعيد كيف استطاع ان يجعل من هذا المستشفى لؤلؤة مضيئة من النظافة والنظام ؟ .. وكان الجواب معروفا . انها الصرامة فى الدقه والاتقان . كان يمر كل صباح فترتج لمروره قلوب مرؤوسيه . وأولهم كبيرة المرضات الانجليزية . كان يتحداها دائما بقوله : هل انت متأكدة من أن كل شىء نظيف وعلى ما يرام ؟ .. فتجيبه بمثل تحديه :

« اذا استطعت يا دكتور أن تجد ذرة تراب واحدة فى اى مكان فلك أن تتكلم » قال لى مرة أنه اغتاظ لتحديها وأراد ان يكسر غرورها ، فلما لم يجد حقا ذرة تراب ظاهرة فى أى حجرة أو ردهة ، زحزح خزانة ملابس لاحد المرضين فظهر خلفها تراب عالق بالحائط ، فمر باصبعه عليه ونظر اليها مؤنبا فخجلت ، ولم يعد يجد فعلا بعد ذلك ذرة تراب لا فى الظاهر ولا فى الخفاء ... ولاحظ أن أرانب التجارب فى المعمل يختفى منها زوج كل أسبوع. فسأل المرض المسئول عن المعمل وحيواناته ، وضيق عليه الخناق فاعترف بانه فعلا يأخذ كل أسبوع زوجا من هذه الارانب ليطبخه على ملوخية ! .. فأطبق بيده على عنق المرض صائحا : ملوخية يابن الـــ ... ودفع به الى المرحاض وزج برأسه فيه وشد عليه السيفون ! . والمرض يصرخ ويستغيث . ثم جذبه بعد ذلك وذهب به الى قفص النسانيس وحبسه فيه طول يومه . ثم اخرجه على أن لا يعود الى مثلها . ودفع اليه بجنيه من جيبه قائلا له : « عندما تطبخ ملوخية قل لى وأنا اعطيك ثمن الارانب . أما سرقة حيوانات المعمل فلا يمكن أن أسمح به أبدا » . كان صارما قاسيا فى العمل ولكنه مع ذلك كان كريما محبوبا من مرؤوسيه . كان مرهوبا وحبوبا فى نفس الوقت .

وفكرت الحكومة بعد ذلك فى انشاء معمل للامصال فرأوا أن يسندوا اليه ادارته مع ترقيته ، وهو المستحق للترقية فى نظر الجميع لبحوثه العلمية وكفاءته الادارية . وكنت انا أول الفرحين بذلك ، واذا به يعود الى كاسف البال ويقول لى أنه رفض الوظيفة الجديدة . لماذا ؟ .. « لأن المسئولين هازلون .. يسمون هذا معملا للامصال

.. خمس زجاجات وعشر أنابيب اختبار وثلاثة بوابير جاز ! .. ولا شيء فى الميزانية غير درجة المدير .. هذه هزليات . وأنا اعتدت على العمل الجاد .. » ونصحه كل زملائه ومحبيه أن يقبل الان الدرجة والترقية . وهو يستحقها من سنوات . وهذا ولا شك ما راعاه المسئولون وقصدوه . أما العمل وانشاء المعمـــل كمــا يريد فليتركه لله وللغيب . فرفض وأصر على الرفض فهو لا يهتم بدرجة ولا ترقية . ان الذى يمهه هو العمل الذى يستطيع أن يتقنه ... وتلك كانت كلماته ...

باريس فيها كل شيء . كل ما تستطيع أن تتصوره موجود فى باريس . انها معرض العالم ومتجر العالم . شيء واحد تأكد لى بعد البحث أنه غير موجود فى باريس هو رباط عنقى . فأنا منذ أكثر من عشرين عاما لااستعمل أربطة العنق المعروفة التى يعقدها الشخص بيده . وعندى أنواع من هـذه الكرافتات اهديت الى فلم أستعملها . نوع واحد هو الذى اعتدت عليه من قديم . هذا النوع العقدة فيه مربوطة جاهزة . وما على أنا الا أن أعلقها فى عنقى تعليقا . انه النوع الذى يسمى فى مطلع القرن بالبمباغ . والبمباغ نفسه أنواع . منها النوع الذى كان يلبسه الشاعر شوقى . وهو على شكل « فيونكه » . أما ذلك الذى ألبسه فهو على نحو الكرافته . بل هو كرافته فعلا ولكنها معقودة أصلا . وكنت قد اشتريت عددا منها منذ أكثر من عشر سنوات من باريس نفسها واحتفظت ببطاقة مطبوعة باسم مصنعها . فلما أردت اليوم أن أشترى هـذا النوع لم أجد وقيل لى أخيرا أطلب بغيتك فى محل كبير مثل الافاييت ربما تجد ... ودخلت هذا المتجر الهائل . وكان معى مرافقى فما كاد يخطو خطوات فيه ويرى معروضاته حتى زاغ منه البصر ، واختطفتـه ألوان البضائع الخلابة ، فانفلت من يدى ، ومرق بين الاروقة والاقسام والمصاعد والسلالم الالية ، وأنا الاحقه بساقى التى تؤلمنى وهو كالمنوم أو المجذوب بقوة سحرية تغريه بالشراء . ولكن الحيرة تتملكه . ماذا يأخذ وماذا يترك كل شيء له ذوقه وطابعه وجماله . ويطول تردده ويزداد لفه ودورانه وجريه فى كل مكان الى أن فطن الى تعبى وأنا أجرى خلفه . فرآى أن يجلسنى فى مكان ، ويمضى هو على راحته يتفرج على كل معروض ويتخير ويفحص

ويناقش كما يحلو له . وبحث لى عن مقعد . فلم يجد لا أحد هنا يجلس . الزبائن فى حركة دائمة ومرور لا ينقطع وكر وفر لا ينتهى صعودا وهبوطا من كل الطوابق . وأخيرا وجدنا فى قسم ملابس الاطفال مقعدا صغيرا ــ لا ندرى أهو للعاملة البائعة أو للطفل الزبون ليجلسوه اذا أرادوا أن يلبسوه ثيابا . فما كدت أرى هذا المقعد خاليا حتى ارتميت عليه دون كلام . ورأت البائعة ما بى من تعب فتسامحت وانطلق المرافق واختفى فى هذه الغابة الخلابة . والتفت حولى فوجدت نفسى بين تماثيل من الشمع للاطفال فى ملابس الصيف والبلاج . ويظهر أن مابى من اجهاد قد سمرنى فى مقعدى فجلست بلا حراك وكأنى أنا الاخر تمثال من الشمع . ولم أفطن الا وبعض الزبائن يحملقــون فى وجهى . وبعض الاطفال يقترب منى ويلمسنى ليتأكد من حقيقة أمرى . وبدا عليهم التساؤل : ما الحكمة فى وضع تمثال رجل عجوز بين تماثيل الاطفال ؟ ! من الزبائن من قد يكون فسر ذلك لنفسه بأن هــذا منطقى : وجود رجل يمثل الجد بين حفدته من الاطفال ، وهو مبتهج بملابسه الجديدة ! .. رأيت بعد ذلك أن أتحرك طول الوقت حتى أقطع الشك باليقين ... ويعلم الناس انى من لحم ودم . ولم تكن البائعة صاحبة المقعد حاضرة طول الوقت . فقد كان شغلها يمتد الى قسم آخر مجاور .

ولكنها عندما كانت تمر بى وترانى جالسا متحرجا من شغل مقعدها وقتا طويلا ، وأحاول الاعتذار ، تبتسم متسامحة وتفهمنى أنها تدرك ما بى من حاجة الى الجلوس والراحة ... وظهر آخر الأمر مرافقى يحمل بعض المشتريات ويقل انه يرجىء الباقى للغد . فأصبح :

أيوجد أيضا غد ؟ ! . فيقول لى فى غمز ولمز : وماذا يضيرك فى هذا ويتبعك ؟ عنـدك المقعد تجلس عليه والبائعة الشابة الحسناء تغازلها ؟ » أغازلها ؟ ! . سبحان الله ! فتاة فى العشرين .. فى سن بناتنـا وحفيدتنا ! .. وأنت نفسك الذى اخترت لى هذا المقعد! .. ومع ذلك فأنا لم أفكر فى نفسى حتى الان . ولا فيما جئت من أجله ... رباط عنقى .. بمباغى ! ..

وقمنا نسأل فى قسم الكرافتات فلم نجد بالطبع . وقيل لنا أن هذا شىء غير موجود . فأخرجت البطاقة المطبوعة باسم المصنع الباريسى الذى يصنع هذا النوع فابتسموا وقالوا ان هذا المصنع قد كف عن صنع هذا الطراز منذ زمن طويل . وعقبت احدى البائعات بقولها وهى تضحك : أيوجد اليوم من يكسل عن عقد ربطة عنقه بيده ؟ ! . وقالت أخرى : العالم مقبل على عصر قد تختفى فيه الكرافتة كلية . وكذلك العمال ... وسوف تطرح ويستغنى عنها وتظهر أنماط أخـرى من الملابس الملائمة لروح العصر ... فاصرف نظرك يا سيدى عن هذا الطلب ... وخرجت من المحـل يائسا ... ماذا عساى أصنع ؟ وماذا ألبس عندما يبلى هذا البمباغ الاخير الذى بقى لى .

لماذا لا أستغنى عن رباط العنق اطلاقا ؟ .. ولكن هل لى من الشجاعة ما يجعلنى فى مثل سنى أخرج بدون كرافتة ؟ ! يا للخجل ! .. انى أعرف أحيـانا الشجاعة فى أشياء أكثر من ذلك خطورة وأهمية ! .. ان العادة تشدنا . والتقاليد تتحكم فى تصرفاتنا . حتى

فيما نوقن أنه عديم الجدوى . طوبى للشباب القادر على التحرر مما يراه غير ملائم . واذا كنا نحن الشيوخ غير قادرين على التحرر من رباط عنق لا فائدة فيه ، فلماذا نريد من شبابنا الاستمرار فى خنق أعناقهم بهذا الرباط ؟ ! .

ان شباب باريس كما أراهم أمامى اليوم قد حسموا القضية فيما يظهر وانتهى الامر . فهم اختاروا لانفسهم المظهر الملائم فى رايهم للعصر . كما انتهوا الى اختيار الشعر الطويل المرتب شكلا لرؤوسهم . واصبح هذا الشكل مقبولا رسميا فى أعمال الدولة . فقد شاهدت مذيعى التليفزيون فى شعور طويلة مرتبة وهندام نظيف لم يعد الشعر الطويل اذن وقفنا أو رمزا للضياع . ولكنه أصبح شكلا عاما للرأس ، نراه عند العاملين النافعين من شباب ناهض وناضج وبعض الكهول وحتى الشيوخ . أما الشعر القصير فله ايضا طلابه ومحبذوه كل حسب ما يلائمه . وهذا وذاك رايته جنبا الى جنب فى باريس . فى البنوك المتاجر . المصالح . البريد . التلغراف . . . كل الاماكن الرسمية نجد الموظفين فيها بشعور طويلة وقصيرة على السواء . ما دمت انت نظيف المظهر فلا انتقاد لاحد عليك . وتستطيع أن تكون موظفا أو عاملا وتعامل بكل احترام . .

وعدنا الى فندقنا كى نجد فى انتظارنا العذاب المعهود صاحب الفندق يذكرنا بأن مدة اقامتنا تنتهى اليوم . وعلينا ان نبحث عن فندق آخر . يالله ! . . ونحن الذين كنا نأمل وندعو المولى سبحانه وتعالى أن ينسيه وجودنا . وكنا نخرج وندخل خلسة عن نظراته . . .

ولكن كيف ينسى والدفاتر أمامه تسجل مواعيد الحجز والاقامة لجميع النزلاء . لو كانت المسائل هنا بالبركة لطعمنا فى السهو والنسيان . ولكننا فى بلاد كل شىء فيها يسير بدقة الساعة المضبوطة .. أمرنا الى الله ! .. فلنحزم امتعتنا مرة أخرى ونبحث عن سقف نقضى تحته ليلتنا ... ورحم الله عهدا مضى كنا نطلب فيه الاقامة بالشهر فتستقبل بالحمد والترحاب ... ■

رحلة حول الشخصية المصرية

عندما نفارق بلادنا ، فان صورتها لا تفــارق عيوننــا .. وعندما كنت فى عشرينات هذا القرن أقطن باريس ، فى شارع « بلبور » ، هذا الذى ذهب اليوم رسمه وبقىَ اسمه ، كنت أفتح نافذتى كل صباح ، فلا أرى أمامى باريس وحدها ، بل أرى أيضا مصر .. فى ذلك المهد .. ..وبالتحديد فى شهر يونيو سنة ١٩٢٧ ، كتبت قصة « العوالم » ، عوالم الفرح ، مستعيدا ذكرى ذلك الجو الذى تنفست فيه أجمــل نسمات صــباى .. جعلت استحضر ، وأنا فى باريس ، ملامح الاســطى حميدة الاســكندرانية ، أول من علمتنى كلمة « الفن » .. وأسطر كلماتها وهى مسافرة فى القطار مع أفراد تختها لاحياء زفاف خارج القاهرة . كانت تودع الحاج محمد « مطيباتى » التخت أو متعهد حفلاته بالتعبير الحديث ، وتوصيه بلهفة والقطار يتحــرك : « حاج محمد ... يا حاج محمد .. شوف يا اختى نسيت أقول لك ... يادى الحوسة ... الارانب أمانة فى رقبتك يا حاج محمد ... ما تنساش ترمى للارانب فوق السطح قشر العجور ... أمانة عليك ... السيدة فى ضهرك ... » .

« ... وتحرك القطار بين صياح أفراد التخت ..
واخيرا رفعت الاسطى حميدة راسها قليلا وتنهدت ، ثم قالت بتأثر : « يا حبيبتى يا مصر !! » ، وكأن هذه الجملة كانت تعبر تماما عن احساس الجميع ، فأطرق الكل لحظة ... » الخ الخ ...

هذا نص ما كتبت فى ذلك التاريخ البعيد ... ولم تزل الى اليوم ، والى الغد ، والى كل زمان ، جملة : « يا حبيبتى يا مصر » ، تعبر عن احساس كل جيل ...

وبعد أن فرغت من كتابة هذه القصة ، ألقيت بها فى درج مكتبى الخشبى البسيط الزهيد فى تلك الحجرة المتواضعة من ذلك الفندق الذى اختفى اليوم مع بقية مبانى الشارع الذى ضاعت معالمه على أهل هذا الجيل من سكان باريس ...

وزارنى صديقى حسين فوزى ، كما اعتاد أن يزورنى بين حين وحين فى ذلك الحى النائى المنعزل ، ولست أدرى ما الذى ذكرنى بالقصة المهملة ، فأخرجتها من الدرج . وكان هو أول من اطلع عليها . وما أن قرأ عبارة : « ما تنساش ترمى للارانب فوق السطح قشر العجور » ، حتى ظهر عليه الحنين الى مصر . وقال لى :

« هذه الجملة فيها كل شهر مايو بمصر .. الحر والعجور وعبد اللاوى » ... وسرح بفكره لحظة وكأنه يردد هو أيضا فى أعماقه : « يا حبيبتى يا مصر » ... !

ما هى مصر ؟ .. تلك التى تشغلنا فى بعدنا عنها أكثر مما تشغلنا فى قربنا منها ؟! .. يبدو لحبنا لها أنها شىء بسيط جدا قد تبدو فى أغنية أو زجل أو موال .. ونراها فى البسطاء من أبنائها .. من أهل ريفها وحوارى مدنها ...

هذا صحيح . ولكن هذا ليس كل شيء . انها ليست من الضآلة بحيث يمكن حصرها فى هذا النطاق الضيق . انها شيء عظيم جدا . ممتد فى الزمن ، متعمق فى الاثر . ان ما نسميه « مصر » ، جسما وروحا وشخصية ، يشبه الانسان العظيم ...

عندما نريد أن نحيط بشخصية انسان عظيم ، ماذا نفعل ؟ .. هل نبحث عنها فى مشاعره أو فى مباذله أو فى تفكيره ؟ .. هل نحاول أن نراه وهو يعمل ويكدح ، أو وهو يغنى ويطرب أو وهو يضحك ويهزل ، أو وهو يصلى ويؤمن ، أو وهو يفكر ويتأمل ... ؟

فى حجرتى القديمة تلك ، سألت نفسي وقتئذ هذا السؤال ... وكنا خارجين لتونا من ثورة سنة ١٩١٩ ، وكل همنا البحث عن شخصيتنا التى نطالب باستقلالها ، وكانت أقرب الموارد الينا أحياءنا الشعبية وريفنا ... الملاءة اللف والجلباب الازرق ... واتجهنا الى هذه الناحية بكل قوانا . بكل ما عندنا من حب ومن قدرة على خلق أو تصوير . ثم اتصلت بالحضارة فى هذه المتاحف والمعارض والجامعات واخذت الكتب تتكدس فى حجرتى الصغيرة ، ولا أجد لها مكانا ، فتدفقت أكوامها على أرض الحجرة . وصرت أحبس نفسى ليلى ونهارى مع رغيف خبز طويل أحشوه بالجبن ، وأجعله غذائى طول يومى ، أقضم منه بين حين وحين ووجهى غارق فى الصفحات .. أن مفهوم الشخصية عند هذه الامم المتحضرة غير مفهومها عندنا . انها ليست فى ناحية واحدة من نواحى الامة ... انها فى مجموع هذه النواحى جملة . فيما هو فى القلب وفى الراس معا . انها عند شعراء الريف الذين يكتبون بلغته المحلية من أمثال مسترال ورماندل

وأوبانيل ، كما هى عند المفكرين الفصحاء من أمثال فولتير وراسين وباسكال . والعالم يعرف شخصية روسيا فى أغانى الفولجا ، كما يعرفها فى موسيقى كورساكوف وتشايكوفسكى ويراها فى باليه البولشوى ذى الاصل الاوروبى الغربى ، كما يراها فى الرقصات الشعبية . هذا التكامل هو الذى يطلعنا على كل الملامح . ويرينا الشخصية فى مختلف أوضاعها . ان الشخصية ليست صفة جامدة ثابتة الا فى الجسم الميت . أما فى الجسم الحى ، أو القابل للحياة ، فهى صفة حية متحركة ، تتغير وتتطور تبعا لما تتلقاه من غذاء ومن تأثير . شأن الانسان الحى الذى تتكون شخصيته مما تتغذى به من أحداث وتجارب ومعارف فى حلقات العمر المختلفة . ومصر الحية ، التى تتكون حلقات عمرها الطويل من تيارات فكرية شتى فى عهود متباينة ، من الوثنية الى المسيحية الى الاسلام ، لابد أن تكون قد هضمت كل ذلك ، وشكلت منه بعض ملامح شخصيتها . اذن لم تكن مصادفة أن أعود الى مصر لاكتب « أهل الكهف » المأخوذة عن القرآن فى موضوع مسيحى ، وعن تفكير فى الزمن وثنى — فرعونى ! .. حبى لمصر انتقل اذن الى ناحية أخرى ، هى محاولة ربط حلقات هذه التيارات الفكرية فى هذه العهود من عمرها المديد .. ثم جعلنا نناقش فى الثلاثينات شخصية مصر على أساس جديد بعد ثورة سنة ١٩١٩ ، مختلف عن الاساس الذى كان معروفا بعد ثورة عرابى ، فى مفهوم عبد الله نديم مثلا ، أو محمد عبده ... وكانت المناقشات تتخذ شكلا علنيا منشورا ، كتلك التى كانت مع الدكتور هيكل والدكتور طه ومعى ، أو شكلا خاصا شفويا مع أصدقاء كالدكتور حسين فوزى ، الذى نشر فيما بعد كتابه القيم

« سندباد مصرى » . وكنا كلنا متفقين فى الرأى والاتجاه. وان شخصية مصر هى فى تكامل ملامحها ومسار تفكيرها عبر القرون والاحقـــاب . ويظهر انه فى فترات الثقافة الكبرى تكون النظرة الى مصر هـــذه النظرة الكبرى ، فلا يكتفى برؤية ملامح مصر فى مجرد ازجال ومواويل وسامر ونكات ورقص بطن ، وينظر الى هذه الاشياء بسذاجة ، على انها الاصالة ، بل كانت تؤخذ كمنابع وحى لفن أرقى جديد بشخصية مصر الحية فى عصر جديد . ولذلك استخدمت الاساطير والفولكلور والف ليلة فى ادب الثلاثينات وفنه التشكيلى على النحو الذى استخدمه ســـترافنسكى وبارتوك ودى فايا للاغانى الشعبية الروسية والمجرية والاندلسية . ولو كان سيد درويش على ثقافة موسيقية مماثلة لفعل نفس الشىء . ولكن عبقريته أسعفته فى الاحساس والمضمون وقصرت فى الشكل والاسلوب . وقد فطن هو نفسه الى ذلك ، شأن الفنانين الحقيقيين ، وأراد السفر الى روما لدراسة الموسيقى على أصولها ، ليملك القـــدرة الكاملة على استخدام أحدث وسائل التعبير وأدوات التطوير ، ولكن الاجل لم يمتد به ليحقق هذا الامل . ولو فعل وكان لابد فاعلا لظهرت ملامح مصر فى تلك الفترة مع تمثال مختار وجامعتها الفنية واضحة المعالم ، مستيقظة الروح ، متهيئة لنهضة حقيقية تتمشى مع عصر حديث وحقبة جديدة من حياتها المستمرة مدى العصور ...

قال لى صـــديق فرنسى قابلتـــه فى باريس ، انـــه لا يستطيع أن ينسى منظرا أثار دهشته فى مصر . شارع به جميع أنواع المواصلات التى خلقها الله او صـــنعها الانسان ، المترو والترام وعربات الكارو والاوتوبيس والســيارات واللوريات والخيــل والحمير والجمـــال

والدراجـات ، ولا ينقصه الا المراكب ... والزحـام لا يمكن وصفه . وبين السيارة والاوتوبيس شعرة . وبين الماشى والماشى لا شيء سوى البهدلة . أو بالاقل اتساخ الملابس اذا لم يأخذ الشخص منتهى حذره ... ولكن العجب الذى استولى عليه هو رؤيته دراجة عليها شاب يحمل ثلاثة طوابق من الخبز ، بيد واحدة ، وباليد الاخرى يمسك « بجودون » الدراجة . ويمرق بما يحمل بين هذا الزحام مروق السهم دون أن يفقد التوازن فحسبه نجما من نجوم السيرك ، وسأل كم يتقاضى على ذلك ، فقيل له ثلاثة جنيهات ، واعتقد انها فى اليوم الواحد طبعا . فلما علم انها فى الشهر ، كاد يصعق ... ولكنه لم يلبث أن رأى ما هو أعجب .. شخص آخر على دراجة هو الاخر ، يحمل عليها عجلى جاموس .. كل رأس عجالى معلق على طرف من طرفى مقعد الدراجة . أما المصارين والكوارع والجلود فتتدلى من الوسط . وبقية الذبيحة مبقورة البطن موضوعة أفقيا خلف مقعده ، تظهر منها الكستليتة وبيت الكلاوى . أما الكرشة والفشة والكبدة والطحال وخلافه فهى مربوطة فوق أكتافه . وهو أيضا يمرق بحانوت الجزارة هذا الذى يحمله على الدراجة مرور السهام بين كتل الزحام دون أن يمسه سوء ! .. العجيب ان هـذا الفرنسى لم يكن يتحدث عن ذلك بروح الانتقاد ، بل بروح الانبهار . قال : تصور ان هذا يحدث فى باريس ... فقاطعته بقولى ان باريس لا يمكن أن يكون فيها شارع بهذا الشكل . وحسب وصفه أدركت انه شارع « الجلاء » ، فهو الذى تتجمع فيه كل أصناف المواصلات، وفى كل مرة نسلكه ، نبتهل الى الله أن يخرجنا منه سالمين . كما أن شوارع باريس لا تسير فيها الدراجات .

ولم أشاهد طوال اقامتى فيها دراجة واحدة فى شارع من الشوارع . فى الريف نعم . لقد رأيت الدراجات فى الجبل . أما المدن الكبرى فلا تسمح هناك بغير السيارات والاتوبسات . أما الدراجة وغيرها مما يعرقل المرور فلا ... ولكن الفرنسى قال : افرض فرضا ان دراجة مرت بمثل هذا الحمل ... قلت يعترضها بوليس المرور ويمنعها فورا . قال انت لم تفهم قصدى . أفرض ان دراجة مرت فى شارع بباريس على هذه الصورة ، انها تصبح أعجوبة . وتتناولها كاميرات التصوير ، ويصطف المارة على جانبى الشارع يشاهدون ويصفقون . ألا تدرك أن فى مثل هذا العمل من المهارة ما يثير الاعجاب . ومع ذلك فالمارة عندكم لا يلاحظون ذلك ، ولا يحفلون به ... الواقع أن الاوربيين شديدو الملاحظة لما عندنا من مهارات ... فى أثناء الحرب العالمية الثانية ، كنت أقطن بانسيون ، ينزل معى فيه ضابط من كبار الضباط الانجليز . وكانت تجمعنا مائدة العشاء ... كان دائم الحديث عن عامل مصرى فى الجيش فى قسم الصيانة ، بعين واحدة . كان يذكر مهارته الفائقة فى الصناعة الدقيقة ، مما جعل الانجليز يحلو لهم مشاهدته وهو يعمل ، ولا يتصورون وجود عامل انجليزى يستطيع تأدية هذا العمل الدقيق بمثل هذه المهارة . وكانوا يرددون فيما بينهم : « هذا الرجل ذو العين الواحدة ! » وقد أصبح عندهم أسطورة .. !

هذه أمثلة بسيطة تحضرنى ، ولها ألوف من النظائر . وهى تدل عندى على أن مصر عندما تفقد قوتها الفكرية لسبب من الاسباب ، أهمها الاحتلال الاجنبى الطويل ، فانها لا تموت . لانها لا تعرف الموت . ولكنها تعوض ذلك فى الحال بالمهارة اليدوية ...

من أبرز الملامح لشخصية مصر ، انها تستطيع ان تجمع الايمان والعلم والفن فى شخص واحد ، أو عمل واحد ، أو مكان واحد ، على نحو عجيب . نرى ذلك منذ حلقات عمرها الاول فى العهد الوثنى ــ الفرعونى . فالهرم يجمع بين الاعجوبة العلمية الهندسية الرياضية الفلكية ، بل أيضا التكنولوجية الاولى فى رفع أحجار بهذه الضخامة ، وبين الشكل الفنى ، وبين الايمان الذى دفع اليه وقام خلفه ... وجاء العهد المسيحى ، وظهرت الاديرة وفيها المكتبات والعلوم والايقونات واللوحات والمخلفات الفنية ثم الايمان الذى يضىء كل الاركان ... وأخيرا العهد الاسلامى ، وفيه تتضح هذه الملامح على أبرز وجه . فالمساجد آية فى روعة الفن وجمال الزخرف ، وفيها حلبات الدرس وجلة العلماء العاكفين على أحياء العلم ، بكل فروعه المعروفة فى عصرهم من فلك ورياضيات ومنطق وطب ، وكل ما يحرك العقل ، وهذا جميعه مع الايمان الذى يعمر القلب .

ان مصر فى حالة يقظتها ونهضتها تتخذ حضارتها دائما شكل الحضارة الكاملة الجامعة لكل العناصر . انها ليست على غرار الامم التى تتخذ فيها الحضارة شكل الموجات ، ففى عهد تطغى موجة الايمان ، وفى عهد تطغى موجة العقل ، عصر للروح وعصر للمادة ... مصر لا تعرف ولم تعرف فى أى حلقه من حلقات عمرها الطويل حضارة الموجات . بل حضارتها دائما حضارة التكامل وتجميع العناصر .. الروح والمادة معا .. الدين والعلم والفن معا ... فاذا تركنا الامة كمجموعة ، ونظرنا الى الفرد ، الى الانسان المصرى فاننا نجد تركيبه هو نفس التركيب .. وكأن ملامح الفرد صورة لملامح

امته ، او كأن ملامح امته تعكس صورتها عليه .

وأوضح مثل عندى لانسان مصرى يجتمع فيه العلم والدين على نحو اثار عجبى ، هو أيضا الدكتور سعيد ، الذى أتناوله هنا كثيرا بالاشارة ، لطول مراقبتى له منذ لقائنا الاول فى باريس العشرينات الى أن توفاه الله فى قاهرة الخمسينات . كان على قدر علمه وتعمقه فى بحوثه العلمية متعمقا فى الدين ، كثير الذكر للقرآن والاستماع الى تلاوته . وكان يذهب فى ذلك مذهب التعصب ... يقبل المناقشة بصدر رحب واتساع أفق فى العلم والمعرفة وكل شئون الدنيا ، أما الدين فلا يقبل فيه المناقشة ويؤمن به ايمان العجائز . وكنت أحيانا أحاول استدراجه الى الجدل العلمى فى موضوع الايمان . فأقول له أن العلماء أمثاله عندما يتبحرون طويلا فى أبحاثهم عن أسرار الطبيعة ، فانهم ينتهون الى مجاهل تدفعهم الى الشعور بوجود الخالق الاعظم والايمان به . وها هو ذا اينشتين يقول فى ذلك هذه الكلمة المعبرة : « انى أدين بأعمق التقديس لهذه القوة العجيبة التى تكشف عن نفسها فى أصغر جزيىء من جزئيات الكون ! » ، فيضحك منى الدكتور سعيد ويقول ساخرا : « أتريد أن تجعلنى أؤمن بالله ايمان صاحبك اينشتين هذا ؟ .. لا يا سيدى ... أنا لا أريد أن أؤمن بالله عن طريق العلم ... علمنا هذا ... دع العلم فى ناحية والدين فى ناحية . لا اريد الخلط بينهما .. أريد أن أعيش معهما معا . كل واحد بصفاته . كمن يعايش ويحب امرأتين معا . كل واحدة بصفاتها » ...

وهكذا يسكتنى . ولكن يبقى تعصبه وتشدده . وهو ما يضايقنا أحيانا . جلس معنا ذات يوم صديق أراد أن يرضيه ، فقال له انه الان يصلى ولا يترك فرضا

ولا نافلة . وان الصلاة لها فوائد كثيرة . وقد لاحظ انها أفادته فى تنشيط عضلاته . فما كان من الدكتور سعيد الا أن صاح به : « ما شاء الله ! .. اتأخذ الصلاة على أنها ألعاب رياضية ؟ ! » . وعاصرت حادثة أثارها ذات يوم من أيام الحرب العالمية الثانية . كان يقطن شقة فى الطابق الاول من عمارة بالزمالك ، أخلتها السلطة العسكرية الانجليزية لتسكن بها كبار الضباط الانجليز . وكانت شقته هى الوحيدة التى تركت بغير اخلاء لصغرها وقربها من رصيف الشارع ، فبقى فيها . وكان يحلو له أن يفتح الراديو على آخره ليستمع الى المقرئين يتلون القرآن . وكان خبيرا بأصواتهم واساليبهم فى الاداء ، يرقب ويصنف فى درجاتهم من الاجادة بدقة العارف المتمكن . ولم يكن يهمه راحة الاخرين ولا مزاجهم كان يضع الراديو بجوار نافذة مطلة على منور مفتوح على كل الطوابق . فكان صوت القرآن يدوى فى العمارة كلها ، ويتركه فى جوف الليل يجلجل فى آذان الصاحى والنائم .. وفى ذات ليلة ، وقد ضج الضباط الانجليز من ذلك ، صاحوا به من المنور : « كفاية ! .. كفاية موسيقى .. ! » . فما كان من الدكتور سعيد الا أن نهض فى الصباح وكتب بالانجليزية التى يحسنها خطابا الى قائد القوات الانجليزية ، وخطابا آخر الى المندوب السامى البريطانى ، يقول فيهما أن الضباط الانجليز الساكنين معه فى العمارة يمنعونه من مباشرة شعائره الدينية ويسمون القرآن الشريف موسيقى.!واذاالقيامة تقوم ! .. وخاف المسئولون الانجليز ان تستيقظ فتنة دينية فى البلد وروميل على الابواب . فانهالت عليه خطابات الاعتذار . وزاره ضباط العمارة يبدون اسفهم.

وجعلوا يسترضونه بكافة الوسائل . فما كان يمضى يوم دون أن يهدوا اليه أجود أنواع الجبن وصناديق البسكوت ، وعلب المربى الفاخرة ، والخبز الافرنجى الابيض الذى كانت تجهله القاهرة وقتئذ ... فكنت أسأله أن لا ينسى أصدقاءه ، وأنا أولهم . فيعطينى نصيبا من الهدايا ، وأنا أقول له مازحا : « زدنى خيرات من بركات القرآن ... ! » . فكان ينظر الى من طرف عينه فاحصا يختبر درجة ايمانى ... وأنا أقسم له انى مؤمن بالله . فكان يصدقنى ويقول : « أعرف انك مؤمن . ولكنك أحيانا عندما تفكر ... » فأطمئنه قائلا : « انها أجهزة ركبت فينا ولا حيلة لنا فيها ... اذا أدرت مفتاح الراديو سمعت صوتا ، واذا أدرت مفتاح الكهرباء رأيت ضوءا .. وأنا أعمل بالجهازين معا . وهذا فى دمى .. لانى مصرى عمرى أكثر من خمسة آلاف عام ... أما غيرنا فى حضارات أخرى ، فأحيانا يعطلون جهاز الروح والقلب فلا يسمعون صوته ويكتفون بجهاز المادة والعقل ويبصرون ضوءه ... » .

ويبدو على الدكتور سعيد الاقتناع بهذا التشبيه . وان لم يكن يرتاح كثيرا الى الكلام المنطقى من أمـــر الدين . انه يريد منى ايمان العجائز ، فى كل حين .. وانا لا قبل لى بذلك فأنا متى بدأت التفكير لا اضمن الى اين ينتهى بى . ولكن الايمان الذى يريده ياتى عندى تلقائيا . بلا تفكير . كما ان التفكير ياتى بلا ايمان . كل فى منطقته .. وكنا نسير معا احيانا فى الطريق ، ونعرض لموضوع دقيق فأنطلق متحدثا على حريتى ، اقلب الامر على كل وجوهه ، تاركا آلة التفكير تعمل بغير حدود . فيصدم ويصيح بى صيحته المعروفة : « اســكت

يا زنديق ! » .. فلا أحفل به واستمر لأرغمه على سماع ما يريد وما لا يريد ، ما دمنا فى صدد البحث الحر . الى ان نمر بمسجد ولى من أولياء الله الصالحين فاذا به يدهش لصمتى فجاه ويلتفت فيرانى قطعت الحديث لاهمس بقراءة الفاتحة ! .. فيقول لى مطمئنا : « يعنى أنت مؤمن بقى بجد ؟ ! » فأؤكد له أنه لا داعى الى القلق على ايمانى .. فهو طبيعى .. كما أنه لا داعى الى الخــوف من تفكيرى الحر . فهو ضرورى . وانى أكون كاذبا لو تظاهرت بالايمان ، كما أكون كاذبا لو ألجمت التفكير . وانه يجب أن يوافقنى على ان كل شىء يجب أن يقوم على الصدق .. وترن كلمة الصدق هذه فى راسه ، فيترك التزمت قليلا ويبتسم ويروح يقص على بعض ما جرى له بمناسبة الدين . قال انه أراد أن يؤدى الزكاة .. فلم يدر كيف يفعل . فقيل له أذهب الى وزارة الشئون الاجتماعية ، ففيها قسم مخصص لذلك . فذهب . فعرضوا عليه اسم شخص يستحق الزكاة ، وأعطوه عنوانه . فمضى اليه عصر أحد الايام فوجد منزلا فى حارة . فدق على الباب فلم يجب أحد . واستمر فى الدق ، ففتح الباب وظهر شخص قوى البنيان مفتول العضلات ، فى جلباب سكروتة نظيف يهفهف ، وأبريق فخار كبير يجرع منه بيد ويفرك عينيه بيد ، ويقول بعجرفة : تصحينا كده من عز النوم ؟ ! .. عاوز ايه حضرتك ؟ .. جاى ليه ؟ ! .. » ، ولم يعجب الدكتور سعيد منظر هذا الرجل الذى لا يدل على مرض ولا ضعف ولا عوز ، وزاد على ذلك قلة الادب ، فقال له : « جاى أحسن عليك ! .. لكن بقــى مافيش لزوم ! .. » ، وتركه منصرفا متعجبا كيف وضــع اسم شخص كهذا فى قائمة المستحقين للزكاة فى وزارة

الشئون الاجتماعية ؟! .. واصر بعد ذلك على أن يبحث هو بنفسه عن المستحقين حقا .. وكان يجد متعة فى ذلك ، بل كان يجعلها أحيانا نوعا من التسلية — وخاصة فى شهر رمضان المبارك — اعتاد أن يحيى لياليه فى منزله على الطريقة القديمة .. يأتى بمقرئين لتلاوة القرآن .. وكانا شيخين كفيفين . فاذا دق مدفع الافطار قدمت اليهما صينية الطعام . وكان الدكتور سعيد حريصا على أن يحضر أكلهما ، ويبصرهما بالاصناف .. قال لهما ذات مساء : اسمعا ما أقول لكما جيدا : فى طبق الخضر ثلاث قطع من اللحم ، واحدة كبيرة ، واثنتان صغيرتان . من يأخذ الكبيرة عليه أن يترك الصغيرتين لزميله . وهذا هو العدل . وجعل ينظر الى ما هما فاعلان ، فرأى الايدى وقد امتدت الى الطبق فى سرعة خاطفة ، وهى تتسابق الى قطع اللحم فتتصادم وتتشابك . وهما يتصايحان : « حاسب يدك يا شيخ محمد ! .. حاسب أنت يا شيخ أحمد .. ! » ، ويضطر الدكتور سعيد الى التدخل ليخلص الايدى بعضها من بعض ، وهو مستمتع بهذه الفرجة . كما كان يستمتع بمنظر فرحهما وهو يعلن اليهما : « النهاردة كنافة » . وفى اليوم التالى « الليلة خشاف » أو الليلة « قطايف » ... كانا يصيحان طربا عند سماعهما ذكر هذه الحلويات : الله أكبر !.. ويهزان الرقبة يمينا وشمالا ... وفى ذات يوم قال لهما أنه يحسن تحريش المعدة بصنف خشن . واعلن اليهما أن الطعام عبارة عن عدس . فاذا بهما يزومان ويقطبان الجبين ويطرقان أسى ... ثم تجرأ أحدهما وهمس قائلا : « عدس ! » ورد الاخر همسا : « ما احنا شبعانين منه ..! » ، ولكن سعيد ما كان يقصد غير الممازحة ليرى وقع ذلك عليهما . فلما

عاد يصحح كلامه ويخبرهما أنه لا عدس فى رمضان . وان الاصناف القادمة كلها مما تشتهى الشفة واللسان .. منها الارز المفلفل باللحم المفروم ، والمكرونة بالمصاج غير المشويات والمحشوات والالمظية وقمر الدين ، علا الهتاف وصاحا فى صوت واحد : « ينصر دينك يا دكتور ... ! » .

من ملامح شخصيتنا المصرية التسامح . كل الاديان والمذاهب تعيش فى مصر آمنة جنبا الى جنب . لم تعرف مصر فى تاريخها الطويل تلك المجازر الطائفية التى تسيل فيها الدماء انهارا على غرار ما حدث فى البلاد الاخرى . معدة مصر القوية تهضم كل شىء ، ولا يبقى فى النهاية غير مصر . لذلك لا نستغرب اذا رأينا كثيرا من النذور يقدمها المسلمون الى جانب المسيحيين لسانت تيريز ومار جرجس ... وعندما كنا أخيرا فى جبال الالب سألنى مرافقى وهو شديد الاحساس بدينه واسلامه عما اذا كان فى البلدة كنيسة ، فلما دلونا عليها ، صار يذهب بى كل صباح اليها ويوقد شمعة يضعها تحت أقدام مريم العذراء . كان تمثالها الذهبى الكبير وهى تحمل رضيعها والنور الالهى يحيط به يملأ النفس خشوعا وجلالا ، فكان يتركنى وينتحى ناحية يقف طويلا ووجهه الى السماء يبتهل الى الله صاحب كل الاديان .. ولكن هذا التسامح الذى جاء نتيجة العراقة وحكمة العمر الطويل عبر القرون ، ينزلق أحيانا عندنا الى التساهل والتساهل هو الوجه الممسوخ للتسامح . هو التغاضى عما يجب أن يؤخذ بحزم فى شئون العمل والحياة . ولذلك عرف عن مصر أيضا انها بلد « ماعليهش ». يخطىء المخطىء ويهمل المهمل فاذا ساءلته قال باستخفاف : ما عليهش ! ..

بل أن الرئيس المسئول يرى خطأ مرؤوسه أو أهماله فى عمل من الاعمال أو واجب من الواجبات ، فاذا نبهته الى ما ارتكبه المرؤوس قال فى شىء من التراخى : « يا سيدى ما عليهش !.. » . وهذا داء خطير عندنا فى مجال الانتاج والتقدم . اذا استطعنا أن نفصل التساهل عن التسامح ، كما يفصل العشب الضار عن الشجرة المباركة ، فاننا نكون قد احتفظنا بالنقاء والصفاء لملمح جميل من ملامح شخصيتنا . ولكن المسألة ليست بهذه السهولة . فالعشب هو أيضا لاصق بالشجرة منذ أمد طويل ، وما هو المنجل الذى يفصل بينهما ؟ .. لقد أردت فى رحلتى الاخيرة أن أحجز مكانا فى طائرة العودة . واقتضى الامر الحصول على بعض البيانات من مصر . بيانات خاصة بالثمن المدفوع لتذكرة القيام حتى يحسب على أساسها ثمن تذكرة العودة ذهبت الى شركة الطيران الاجنبية فى باريس التى أحجز على طائرتها وأخبرتها بنية سفرى فى اليوم التالى، فقالت انها ستبرق الى مصر بطلب البيانات ، وسيأتى الرد طبعا فى ساعات ، وبهذا يصبح السفر ممكنا فى الموعد الذى أردته ، وحررت البرقية أمامى وقرأت نصها ، ولكنى قلت للشركة بلهجة الجزم والتأكد : « ما دامت الحكاية فيها انتظار رد من مصر فأنا غير مسافر لا غدا ولا بعد غد ولا بعد أسبوع ! .. فاستغربوا قولى ولم يصدقونى . وعدت اليهم بعد يوم أسأل عن رد مصر . فلم يجدوا ردا وصل . وقالوا ربما بعد يوم آخر . قلت لنفسى ستنتظرون عبثا هذا الرد . انه لن يأتى . برقيتكم مدشوتة فى درج مهمل لموظف أو موظفة من طراز « ماعليهش » ! .. وبالفعل مضت أيام ولم يصل رد ، وتأخر سفرى ، الى أن

اقترحت عليهم صرف النظر عن البيانات ، واعتباري زبونا جديدا مستعدا لدفع اى ثمن لتذكرة جديدة .. هذا التساهل هنا أو الاهمال هو فى أتفه مظاهره وأقلها خطر . ولكن عندما يقع فى انتاج نصدره الى الخارج ، فى خيط واحد ناقص من نسيج ، فان سمعة صناعتنا كلها تصبح فى الميزان . وعندما يحدث فى تقصير فى الخدمة صغير بالنسبة الى سائح ، فان كل سياحتنا تصبح مضغة فى الافواه . وخسارتنا هنا تصبح مادية ومعنوية الى أبعد حد . اننا نكسب بالتسامح ونخسر بالتساهل ومع الملمح الجميل الدمل الدميم . ولكن المطمئن فى الامر هو أن الملامح طبيعية وثابتة ، والدمامل طارئة ويمكن أن تزال ..

كان فى ظننا الى عهد بعيد ان من ملامحنا الخاصة بنا ما يسمى بالغيبيات . ولكن أوروبا منذ مطلع القرن بدأت تظهر فيها نزعات غيبية على نحو جماهيرى. فكثرت الاعلانات فى الصحف والمجلات عن المنجمين والمنجمات . وكنت فى العشرينات أقرأ مثل هذه الاعلانات . بغير اهتمام أول الامر . الى أن حدث ما جعلنى اهتم بها . لا بسبب عاطفى أو مرضى أو مستقبلى . بل بسبب مضحك : سبب فنى . فقد كانت تعرض لى فى مصر بفرقة عكاشة فى ذلك الوقت من عام ١٩٢٦ أوبرت « على بابا » وجاء فى خطاب من مصر يصف لى روعة المناظر التى عرضت بها على نحو أثار حنينى وشوقى . كنت أدفع نصف عمرى يومئذ لمن يحملنى الى مصر أشاهدها وأعود . ولكن لا طائرات وقتئذ ، والبواخر بطيئة ، وأهم من ذلك المال . أين المال للسفر ؟ ! . فكنت أنام وأقوم وأنا أحلم

بالمسرح والمسرحية ، كنت فى تلك الايام ككل مؤلف شاب لا اكاد أفارق المسرح أثناء تجارب مسرحيتى ولا طول مدة عرضها . ألازم المسرح والمسرحية وأنا فى الكواليس أو الصالة أو أعلى التياترو ، باستمرار حتى اعتاد بصرى الظلام ، واستغرب وجود الشمس عندما أخرج ساعة فى النهار . اليوم أسمع مثل هذا من مؤلفينا وأتعجب وأنسى أنى كنت قديما مثلهم واشد حبا وغراما وحرصا على الالتصاق ليل نهار بالمسرح والمسرحية ، بعد أن أقعدنى اليوم الزهد والسن والضيق عن الرغبة فى مشاهدة مسرحياتى حتى على مسارح أوروبا ، متحسرا على الحماسة الفنية والنفس المفتوحة التى كانت لى فى الماضى .. ماذا أصنع اذن لأرى « على بابا » بمناظرها على المسرح . وأنا فى باريس ؟ ! قرأت فى اعلان لاحدى المنجمات انها تستطيع أن تجعل الشخص يرى ما يريد رؤيته ماثلا أمامه من خلال كرة بلورية . فأخذت عنوانها ومضيت اليها على الفور . فوجدت امرأة عجوزا فى شارع ضيق متفرع من بولفار باتنيول ، تجلس على مائدة مفروشة بجوخة خضراء فوقها كرة بلورية فى حجم البرتقالة اليفاوى . او أكبر قليلا . أمسكت بكفى أولا ، وجعلت تقرأ لى خطوطه وتحدثنى بكلام طويل عن حب عاطفى مستعر يبتدىء بكذا وسينتهى بكذا . وأنا لا أصغى اليها ... كل همى والتفاتى الى الكرة البلورية أريد أن أشاهد فيها مسرحيتى « على بابا » يتحرك فيها الممثلون عمر وصفى وزكى عكاشة وعليه فوزى وبقية افراد الجوق ، وتصدح فيها ألحان زكريا أحمد ، وتزهو بتلك المناظر الباهرة التى بلغنى خبرها ! .. بالطبع لم أر شيئا . ولا حتى مطربنا زكى عكاشة فى حجم « عقلة الصباع » ! .

تركت المنجمة يائسا . ومرت الايام والليالى ، وعينى تقع على هـــذه الاعـــلانات فى الصـــحف عن المنجمين والمنجمات ، فأخذت أفكر فى هذه الظاهرة . كيف أصبح التنجيم بضاعة رائجة فى باريس ؟ وظهر فى تلك الاثناء لاستاذ جامعى محترم اسمه فيما أذكر شارل ريشيه كتاب عما أسماه الحاسة السادسة يعرض فيه تفسيرات لخوارق ما كان يتعرض لها العلم من قبل . أتراها الحرب العالمية الاولى وما جرت من كوارث وهزت من نفوس أثرت فى عقول الناس ، وجعلتهم يلتمسون العزاء او الهرب فى عوالم خفية ، أو أنه تحـــول فى مجرى الحضارة الاوروبية ذاتها ، وحاجتها الى مســـالك جديدة الى المعرفة ؟ .. ربما كان السببان صحيحين . وأحدهما لا ينفى الاخـــر . وان كان ذلك التحـــول الحضارى قد بدأ قبل الحرب العالمية الاولى بزمن ليس بالقصير . وفى رايى أن حملة نابليون الى مصر واكتشاف حجر رشيد على يد شامبليون غير مفهوم أوروبا بالأمس حضارتها . فقبل هذه الحملة واكتشاف العلماء لمصر كان الاساس الحضارى لاوروبا والغرب كله هو اليونان القديمة بمنطقها الظاهر وفنها العارى وفكرها الواضح. فلما عرفوا مصر أدركوا أن هناك دنيا أخرى لها منطقها الخفى وفنها الغامض وفكرها الغائر فى المجهول . ولكن تأثير مصر أخذ وقتا طويلا ليشق له تيارا فى أوروبا الى جانب التيار اليونانى . ومهـــدت مصر لهم الطريق لاكتشـــاف أفريقيا كلها . وخاصة أفريقيا الفن والكهانة والسحر . وما أن جاء هذا القرن حتى كانت أوروبا قد فطنت وذهلت للقوة الخفية الكامنـــة فى فننا المصرى القديم ، وللمؤثرات الساحرة لفن الاقنعة الافريقى ، بل وللقوى العلاجية العجيبة لايقاعات الطبول والرقص

عند قبائل أفريقيا ... وجعلوا يدرسون كل ذلك بعناية. وظهر تأثير الخطوط المبسطة الصارمة والكتل الحجرية المهيبة فى فن مصر على فن أوروبا التشكيلى ، كما ظهر تأثير ايقاعات الطبول الافريقية على الموسيقى ، والكهانة وسحرها على علوم النفس والتنجيم .. ومن يتابع نشاط بيكاسو وبول كلية وكاندنسكى قبل عام ١٦١٠ يجد هذه الاتجاهات والتأثيرات . ومنهم من قال صراحة أنه ذهب الى أفريقيا ليكتشف طريقا جديدا لفنه . وظهرت المدارس التى تدعو الى الاهتمام بمعجزات الفطرة الخلاقة عند الاطفال والشعوب البدائية ، وتأثرت بالفعل بعض الاساليب الفنية الحديثة فى أوروبا بهذا الاتجاه . كما جاءت المدارس السوريالية والدادية وغيرها بفكرة تخطى حاجز العقل المنطقى والوعى الظاهر ، للنفوذ مباشرة الى منطقة الوعى الخفى .. كل ذلك كان يدل فى عشرينيات هذا القرن على أن أوروبا فى سبيل تحول حضارى يدخل فى حسابه دراسة الغيبيات الى جانب العقليات . ولكن كل هذا كان يمارس على الطريقة الاوروبية ... بمعنى أن الغيبيات كانت تدرس بواسطة العقليات ... وهنا الفرق بيننا وبينهم . أن الغيبيات عندنا جزء منا ، لايخطر ببالنا أن نقطعه ونفصله وندرسه . ولكنها بالنسبة اليهم شىء منفصل ، يريدون ضمه واضافته بالدراسة والعلم والفن ...

يبدو اننا علمنا الدنيا البناء للخلود . ونسينا اليوم ان نعلمه لانفسنا . هذه الاهرام الباقية على مدى الزمان . وهذه المساجد بأحجارها الضخمة منذ قرون ... شيدتها أيدينا المصرية لتتحدى الغد . وقد تحدته

بالفعل . العالم المتحضر اليوم يفعل ذلك . بهذه الرافعات العملاقة التى رايتها فى أوروبا يقوم البناء العملاق المتحدى . أنهم يبنون كأنهم يعيشون أبدا ، على الرغم من شبح الحروب وقلق الدمار ، ونحن نبنى كأننا سنموت غدا . ابنية هزيلة هشة توحى بالزوال . اترانا قد شبعنا خلودا ؟ ! .. أو أن من خصائصنا المصرية الشعور بالبقاء .. تجده أما فى كتلة الاحجار وأما فى كتلة الشعب المصرى ! .. فمصر تشعر دائما بقوة صمودها للزمن بكتلة أحجارها أو بكتلة شعبها . والاحجار عندما تبلى تجد من يرمها ، والشعب أيضا فى حاجة الى ذلك . ولكن شعب مصر فى صبره الطويل على الزمن والمحن ينسى نفسه ، وينسى فكرة الترميم . لا لحياته فقط ، ولكن لمبانيه أيضا . يتركها كما هى وهو يعلم أنها آيلة للسقوط . قلما تعرف أوروبا المنزل الايل للسقوط ، وتتركه حتى يسقط . الصيانة هى روح البقاء عندهم . ونحن لا نعرف كلمة الصيانة . لا لصحة الجسم ولا لصحة المبنى . ان الانفاق الجديدة المحفورة اليوم فى باريس ، للمترو أو السيارات لشىء يدعو الى الدهشة . ومن طولها أصبحت شوارعها تحتية . وقد أتعبنى السير فيها . وخاصة وساقى مريضة . والنسيان قد زاد عندى فلم احفظ اللافتات الموجهة ، فأسير واجهد فى السير ثم اكتشف خطأ طريقى فأعود ادراجى لاسلك نفقا آخر أكثر منها طولا . سألت نفسى : لماذا كل هذه الطرق تحت الارض ؟ .. لا شك أنهم يخططون للمستقبل ويدركون أن الشوارع العادية فوق الارض لن تكون ورقة ملقاة صادفتها فى طريقى ... قد نفطن غدا الى ضرورة هذه الانفاق ، ولكن الى أى مدى ستبقى كأنفاق، ولا تنقلب الى مباول واكوام قاذورات ؟ من السهل أن

نستعيد القدرة على البناء ، لكن هل من السهل أن نغرس روح الصيانة ؟ ! . وهل الشعب الذى لا يعرف الصيانة لبدنه يستطيع أن يعرف الصيانة لمبانيه .. ؟! كم من الشعب من يذهب الى الطبيب ، قبل أن يخر صريع المرض ؟ ! .. أن مشكلة الصيانة لهذه الانفاق يوم تنشأ أخطر واعسر من مشكلة البناء ! ..

هناك نوع من الصيانة نعرفه .. وربما اعتبر فى خصائصنا المصرية . ذلك هو صيانة عاداتنا من التغيير السريع ، نجد ذلك فى بعض المطاعم القديمة الشهيرة كما نجده فى عيادات بعض الاطباء القدماء المشهورين كنت فى الشتاء أذهب مع جماعة من الاصدقاء يوم الجمعة من كل اسبوع لنتناول طعام الغداء فى مطعم شعبى للشواء أى الحاتى فى حى من أحياء القاهرة الشعبية بعض هذه المطاعم معروف من عشرات السنين ، ومزدحم دائما بالزبائن من شتى البلاد ، واحيانا من السائحين الاجانب وهو قلما يغير من مظهره . كأن الدنيا واقفة منذ اول انشائه . لا يخطر بباله أن يغير مرة من لون مناشفه أو مفارشه ، أو حيطانه . وجدت ذات يوم هذا المظهر فى عيادة طبيب كبير . المقاعد والاثاثات والابسطة العتيقة الممزقة يغطيها التراب . كل شىء عتيق ومترب مهمل وكأن العنكبوت ينسج خيوط التاريخ القديم على المكان ، فيوحى اليك انك فى عيادة الطبيب الخاص لآدم عليه السلام ! .. سألته مرة فى ذلك فقال انه يستبشر بهذا ويتفاءل . لان العيادة على هذا النحو من قديم جاءت له بالنجاح . وانه يتشاءم من أى تغيير .. ولست أدرى ما هى الصلة بين النجاح الاول وبين الوقوف عنده بلا تغير . اقارن هذا بما حدث لنا أخيرا فى باريس.

راينا فى أحد المتاجر الشهيرة قطعة قماش معروضة فى مكان من المحل أعجبت مرافقى وأراد شراءها ، ولكنه تردد لارتفاع سعرها وأحجم وأنصرفنا . ولشدة تعلقه بها شجعته على شرائها ، وذهبنا فى اليوم التالى لنبحث عنها فى موضعها حيث تركناها ، فوجدنا المواضع كلهـا قد تغيرت ، والمعروضات قد اتخذت شـكلا جديدا . وعبثا حاولنا العثور عليها . هكذا بين يوم وليلة تتغير أوضاع المحل ؟ ! نعم . قالت لنا البائعة : لابد أن تقع عين الزبون على شكل جديد فى كل يوم . وصرت أسائل نفسى : هل الاشكال الجديدة هنا نتيجة للحركة السريعة فى الفكر والخيال ؟ . أو أن سرعة الايقاع للفكر والخيال فى هذه الأمم هى التى تستوجب التغـير المستمر فى الاشكال ؟ . شىء آخر لفت أنظارنا : هذه الاشكال نفسها ما هى الا وليدة خيال وذوق وفهم ... ذهبنا لتناول طعام الغداء فى مطعم متخصص فى اللحم البقرى المسلوق بالخضر مع الملح الكبير المجروش ، أو ما نسميه عندنا فيما أظن بالملح الرشيدى . دخلنا فوجدنا المحل عجيبا بالديكور الذى أتخذه . فسقفه عبارة عن جلد البقر ، وعلى الحيطان رسم بارز رائع لبقرة كبيرة ، وثريات الكهرباء من قرون البقر ... وكنا قبل ذلك قد دخلنا مطعما اسمه « عربة البريد » . تلك العربة الكبيرة التى كان يسافر بها الناس قبل اختراع السكك الحديدية . فوجدنا ديكور المحل يتكون كله من هـذه العربة ، وكأننا جميعا داخلها يظلنا « كبوت » العربة الضـخم ، ويضىء لنا النـور من فوانيس كبيرة هى فوانيسها ، وتتدلى الشموع من عجلاتها ... وحتى سوط السائق والجمة الخيل وما يوضع على ظهورها وعيونها .. كل ذلك يتكون منه الديكور ، على نحو

بديع يثير الخيال . وهكذا فى كل مطعم أو مكان نجد الخيال الخصب الذوق البديع والاشكال الموحية قد سبقتنا اليه . ولم يعد الامر مجرد طعام يؤكل ولا بضاعة تقدم ولا مصلحة تقضى ، بل أيضا متعة الجو الذى ينسج حولك بذوق وفهم وذكاء ... وهذه أيضا أدوات السياحة لكل بلد يريد أن يستقدم زوارا وسائحين . ولكن هذه الاشياء أين نجدها ؟ ومن يعلمنا اياها ؟ .. الحقيقة ان مصر كانت تملكها وتعرفها على مدى تاريخها فى فترات يقظتها وحضارتها ... وهى التى أشعرت العالم بفن معابدها ونقوش مساجدها وما لا يحصى من تماثيلها وأوانيها وتحفها . وكان المصرى هو الفنان الذى يخلقها ويبدعها وهو الشعب الذى يشاهدها ويتذوقها ... أين ذهب اذن هذا المصرى ؟ ! . خنقه الاحتلال الاجنبى الطويل وأنساه الخلق والابتكار . وأعطاه تعليما يجعل منه فقط العامل اليدوى والموظف المكتبى . وكل تعليم يكتفى بصب المعلومات لن يؤدى الى خلق وابتكار . وأهم دعامتين لكل خلق وابتكار هما الذوق والخيال . انى احفظ كلمة للعالم اينشتين أعجبتنى وأدهشتنى . قال ما نصه : « ان الخيال أهم من المعرفة » ... حقا انها كلمة عجيبة ، وخاصة من رجل علم مثل اينشتين ! .. ترى ماذا يقصد ؟! وجعلت أفكر فيها مليا . أتراه يقصد أن الخيال آلة متحركة ، والمعرفة رصيد ثابت ؟ .. الخيال حركة والمعرفة سكون ؟ ! . أو أنه يقصد أن الخيال هو الدينامو المحرك لاجتذاب المعرفة ؟ ! . أغلب ظنى ان هذا ما يقصد . فقد قرأت له فى مجال آخر قوله أن الكثير من اكتشافاته العلمية يرجع الى الخيال والتخيل فى مبدأ الأمر ... اذن حتى فى نطاق العلم البحت لابد من الخيال . لكن

كيف نرى الخيال ؟ ! . الجواب نجـده عند اينشتين نفسـه . فقد كان من أهم هواة الموسيقى ، يعزف بيده على بعض آلاتها ، ويتذوقها أحسن التذوق . وله آراؤه الخاصة فى باخ وموزار .. ولا أنسى أيضا فى هذا المقام عالمنا المصرى العالمى الذى قيل انه أحد عشرة فى العالم وقتذاك تعمقوا وتابعوا بالبحوث معادلات اينشتين : انه المرحوم الدكتور مشرفة . لقد كان من هذا الطراز كما تكشف لى من رسائله الى أحاديثه معى فى الادب والفن ... اذن علينا أن نستنتج من ذلك قيمة الفنون والاداب فى تنمية هذا الخيال اللازم فى كل خلق وابتكار ، حتى فى ميدان العلم النظرى والتطبيقى ، بل وعلى الاخص كما قال لنا اينشتين فى مجال العلم وبحوثه واكتشافاته ... وهذا يفسر لنا معنى اكتمال الحضارة فى كل أمة وعصر ... ان روح الخلق نجده فيها ساريا نابضا فى كل فروع الشجرة الحضارية المثمرة : فى العلوم والفنون والاداب والتذوق العام . كما أن الروح الخامدة نجدها فى الامم المتخلفـة أخملت كل فروع شجرتها الذابلة ، فأدى عقم الخيال الى ضمور التفكير فساد الذوق العام ، وعندما يفسد الذوق العام ، كما يفسد الدم فى الجسم ، وتظهر الاعراض فى صـورة هبوط فى مستوى الوعى وشحوب فى وجه الفـكر ، نتيجة الطعام المبتذل والغذاء الناقص فى قيمته المرتفعة الذى يقدم الى الشعب ، فان العلاج هو فى عملية تغيير الدم ، بأن ينقل اليه دم يحوى من قيم التغذية الحضارية أدسمها وأعلاها مما يعيد الى الجسم حيويته وكفاءته ويسترد صحته وقوته ويتوهج من جديد خياله وروح ابتكاره ويلحق بالحضارة المستيقظة حوله ، فتراه بعد نومه خلفها ، قد هب جالسا الى جوارها ، يتعاون

معها فى السير بالانسانية نحو التقدم ...

قضينا ليلتنا الاخيرة بباريس فى فندق ، رضى بأقامتنا فيه ليلة واحدة كالعادة فى هذا الموسم الغريب ! ... ووجدت موضوعا على مائدة الحجرة كتابا جيد التجليد هو الكتاب المقدس ، وعندما هممنا بالرحيل فى الصباح أردت حمل هذا الكتاب معى ٪ فقال لى مرافقى انها سرقة . فقلت انهم يريدون منا ان نسرقه . وكنا قبل ذلك قد وجدنا فى أحد الفنادق كتابا به كل ما يمكن زيارته فى باريس من متاحف ومعارض ومسارح ومراقص ومطاعم ومتاجر . وقلت انه ما دامت قد تركت مثل هذه الكتب للنزلاء فقد وضع فى الحساب والاعتبار ان يأخذوها . وفى أخذها ونشرها بين ذويهم فى مختلف البلاد فوائد معنوية لا تقاس الى جانبها الخسارة المادية . ان حبس المعـرفة والثقافة لبلد من البـلاد عن الانتشار وغزو العقول فى البلاد الاخرى وتكبيلها باستمارات ـ س ح و ط ز ـ لهى نظرة ضيقة لا ترى غير الجانب المادى لاشياء هى فى جوهرها وأثرها البعيد فوق مسـتوى المادة .. على كل حال لم أحمل شيئا من هذه الكتب المتروكة ما دامت هناك شبه سرقة . وحزمنا حقائبنا وقمنا الى المطار . وقامت بنا الطائرة الى جنيف . وقالوا فى المذياع اننا سننتظر فى جنيف قليلا الى أن تقوم الطائرة الى القاهرة فى الساعة الثانية وفهمت أنا خطأ أن الانتظار فى جنيف هو لمدة ساعتين واذا بى أتلكأ وأنفق الوقت فيما لا طائل تحته ، واذا بى اسأل عن طريق المصادفة البحتة موظفة الاستعلامات عن موعد قيام طائرة القاهرة بالضبط . فدهشت وقالت : ما الذى أخرك للان . انها قائمة فى التو واللحظة . اسرع ... اسرع قد تلحقها وقد لا تلحقها . فكدنا

نصعق وانطلقنا نجرى كالمجانين ، ومرافقى المسكين يحمل عنى ما أنوء به من حقائب صغيرة وأنا أعرج بساقى . وما أن وصلنا الى آخر باب حتى وجدنا المسافرين كلهم قد خرجوا . واننا نحن آخر الفوج ظهرنا نلهث . واذا بنا نجد أنفسنا فى ايدى موظفين على وجوههم الريبة ، فتناولونى بالتفتيش الدقيق خلف استار ، يتفحصون جسمى وأنا أقول لهم : « هل تتوقعون ان تجدوا معى قنابل ومسدسات وقدرة فى مثل سنى على خطف الطائرات ؟ ! » وحدث لمرافقى ما حدث لى من فحص لكل ما يحمل حتى علب فرش الاسنان !.. وتركونا آخر الامر نصعد الى طائرة القاهرة ، بعد أن تصبب منا العرق مدرارا ... ولست أدرى ما الذى جعلنى اتذكر فجأة حادثا لى مع بعض السلطات منذ ما يقرب من ربع قرن ... كنت أريد السفر الى فرنسا . وجهزت كل أوراقى . ولم تبق سوى تأشيرة القنصلية الفرنسية . واذا بالقنصل يرفض اعطائى هذه التأشيرة ، التى لابد منها لدخول فرنسا . ولم أدر ما السبب ؟ وقيل لى أذهب اليه لتتحرى الامر . فذهبت وقابلته وسألته . فأخرج ملفا من درجه وجعل يعدد التهم . قائلا : أنت فى عام ١٩٤٣ كتبت مقالا عنيفا ضد فرنسا بعنوان « خيبة أمل » قلت فيه أن أملك خاب فى فرنسا التى تطأ بأقدامها استغلال شعب صغير ... الخ فتذكرت المناسبة كان ذلك على أثر اعتداء السلطة الفرنسية فى بيروت على استغلال لبنان ، واعتقالها يومئذ رئيس جمهوريته ووزراءه ونوابه ! .. قلت له : ألا يستحق مثل هذا الاعتداء على كرامة شعب شقيق أن أكتب فيه مثل هذا المقال ؟ ! .. فلم يلتفت الى قولى واستمر ينظر فى الملف ويقول : ثم

حدث بعد ذلك أنك أهنت فرنسا برد نيشان اليها ، كانت قد أهدته اليك بمناسبة ترجمة مؤلفاتك الى الفرنسية عام ١٩٣٨ ... وهنا تذكرت أيضا المناسبة . كانت على أثر اعتـداء فرنسا على تونس . وكانت مذابح وضحايا ، وتكونت فى مصر لجنة من الهلال الاحمر رأت الذهاب الى تونس بالادوية اللازمة للجـرحى . واذا بالسلطات الفرنسية هناك ترفض دخول هذه اللجنة المكونة من أطباء مصريين يحملون الدواء ...

قلت للقنصل : الا تريد منى أن اغضب لمثل هـذه الاعتداءات على شعوب هى لنا بمثابة الشقيقات ؟ .. ضع نفسك فى مكانى .. ألم تغضبوا يوم اعتدى الالمان على استقلال بلجيكا ؟ ! فأطرق قليلا . وبدا عليه حسن الفهم . ولكنى أنا عجبت لنفسى . ما الذى كان يغضبنى هذا الغضب !! . انا لم أكن يوما من حملة الشعارات ، لا للوحدة العربية ولا لغيرها من مواقفنا المصرية ... انى أتصرف دائما من وحى شعورى التلقائى ونظرتى الخاصة . اذن غضباتى صادقة . لانها نابعـة منى وحدى . ونظراتى أيضا لانها صادرة من تقديرى وحدى. وما دمت دائما صادقا مع نفسى وهى المنبع عندى فالامر اذن حقيقى . واذا كنت أغضب تلقائيا لما يمس أى شعب عربى ، فمعنى هذا أنه لابد أن يكون هناك شىء مشترك . عندما أقول أن اسمى هو توفيق الحكيم فان كلمة الحكيم هى الاسم المشترك الذى يقاسمنى فيه أبى وابنى وشقيقى . ولكن اسم توفيق هو شخصيتى أنا .. وجودى .. تجاربى .. تاريخى .. قدراتى ...

عيوبى ... ظروفى ... لن أتخلى عن اسم توفيق الذى هو نفسى ... ولا انسى اسم الحكيم الذى هو اســـم الاسرة التى أنتمى اليها ... اللقب هو الانتماء ، والاسم هو الشخصية ...

وعندى أن الوحدة كالوردة نحبها ونشمها ولا نفركها بأيدينـــا .

العـــــوالم

الى ...
الأسطى حميــدة الاسكندرانية
اول من علمنى كلمة « الفن »

عوالم الفـــرح

« كتبت هذه القصة الوصفية
فى باريس ــ بشارع «بلبور»
عام ١٩٢٧ بعنوان «العوالم»،
وهى وصف لطائفــة عــوالم
الأفراح التى كانت معــروفة
فى مصر قديما ، وانقــرضت
الآن » .

قبيل قيام القطار من محطة مصر بنحو خمس دقائق نزل الحاج محمد المطيب(*) من عربة الدرجة الثالثة. ووقف على الرصيف بجوار النافذة .. يجفف عـــرقه ويسعل سعال أصحاب الكيف الذين يعيشون بأنفاس التعميرة .. ثم صاح :

ــ يا .. الله .. رمضان كريم ..

وسعل سعلة انتهت ببصقة كبيرة .. والقى نظرة اطمئنان سريعة على الاسطى حميدة وجميع أفــراد التخت .. وقد انحشرن فى مقعدين متقابلين بطــرف العربة .. تتوسطهن صرر الآلات .. ثم قال :

ــ أدينى بلا قافية رستأتكم فى ركن معتبر. .خليكم بقا كده باذن الله لحد محطة سيدى جابر ..

فرفعت الاسطى حميده يديها الى السماء بقوة ..

ــ شيلله يا سيدى جابر .. الفاتحة ياولاد لسيدى جابــر ..

فصاح الحاج محمد بسرعة :

ــ بس حاسبى .. بلا قافية ايدك حاتوقع الرق من فوق الصرة على العود تنقطم رقبته ..

ــ شر بره وبعد .. شيلله يا سيدى جابر .. الهى يجبر بخاطرنا .. بسره الباتع .. الا يا حاج محمد .. دى المستعجلة دى ولا المفتخر .. ؟

ــ المستعجلة .. هو من غير مؤاخذة المفتخــر يبقى فيه « ترسو » ؟ .

ــ هلبت على كده ما نطب هناك بعــد مدفــع الفطور ..

ـــ على أبو التسعين .. حاتلاقوا حد من طـــرف بيت الفرح مستنتظركم على المحطة .

وعندئذ رنت ضحكة ســـخرية من سلم الرقاقـــة العاجزة أردفتها بقولها :

ـــ وان ما كانش حد فى انتظارنا يا ادلعدى .. دى ساعة فطار وكل من كان همه فى بطنه ..

فالتفتت اليها الاسطى حميده وقالت :

ـــ النبى تسدى .. وتحطى على ميلتك برش .. العلوان معايه ..

فابتسم الحاج محمد وقال :

ـــ براوه عليك يا أسطى حميده .. اهو بلا قافية ان ما كانش حد فى استنظاركم أديك معاك العلوان .

وكأن الاسطى حميـــده بجلالة قـــدرها لم تفكر فى العنوان الا فى هذه اللحظة .. ذلك لأنها أخذت فجأة تبحث عنه فى ملابسها وفى صدرها .. ثم التفتت الى فاطمة الرقاصة وقالت بقلق :

ـــ بت يا فاطنة .. الورقة الى أديتها لك فين . واحنا فى الحنطور .. ؟

فأجابتها :

ـــ ما هى ملفوف فيها الصاجات ..

فدقت الاسطى حميده على صدرها صارخة :

ـــ صاجات يا بت .. ؟ الورقة اللى فيها العلوان الهى يسخطك ..

فتجهم وجه الحاج محمد قليلا وقال :

ـــ بقا بلا قافية مش عارفين تستحرصوا على حتة ورقة .. ؟

وهنا دق جرس المحطة الاول فصاح جميع أفـــراد التخت فى وقت واحد بغير نظام ولا ترتيب .

— نشوف وشك فى خير يا حاج محمد ..
ولكن الحاج محمد أشار اليهم بالسكون .
— هس .. لسه .. هس سمع .. لسه فاضل كمان من غير مؤاخذة جرس .
ثم سعل وبصق وصاح :
— يا .. الله .. رمضان كريم ..
فقالت الاسطى حميده وهى تبتسم بخبث :
— بحق يا حاج محمد .. دا أنت صايم .. الهى يصبرك ..
فلم يجب الحاج محمد .. ولم يتنبه الى ابتسامات الخبث والسخرية التى تبودلت بين جميع أفـــراد الجوق . واستمر يتمتم بذكر الله والصيام .. ثم رفع رأسه وقال :
— بقا فهمتم بلا قافية تعملوا ايه فى محطة سيدى جابر .. ؟ تسألوا على بيت محمد بك قطبى زى اللى مكتوب فى الورقة .. محمد بك قطبى من أعيـــان اسكندرية ألف من يدلكم عليه ..
وفى هذه اللحظة صفر القطار فصاح الحاج محمد.
— هه .. يا جماعة .. مش لازمكم حاجة .. ؟
فصرخت سلم الضريرة :
— حاج محمد .. يا حاج محمد .. لازمنا قـــلة ميـــه ..
فأجاب الحاج محمد منتهرا :
— قلة ميه ايه .. احنا فى رمضان يا وليه اتقى الله .. واختشى على عرضك ..
فهزت نجية الطبالة رأسها وقالت :
— حكم .. بقا الميه يا حاج محمد ولا التعميرة ؟
فصاح الحاج محمد بغضب :

ــ تعميرة ايه يا مرة .. ؟وحق صيامى ..
فقاطعته نجية :
ــ صـيامك .. ؟ صيامـك أنهو ده يا روحى .. ما تقولش كده أمال .. دانا شايفاك بعينى الصبح فى أيدك الجوزة وقاعد تكح وتنبر ..
وأراد الحاج محمد أن يتكلم فقاطعته الاسطى حميده مغيرة مجرى الحديث فضا للنزاع .. وقالت بعد أن غمزت الطبالة نجية بطرف عينها :
ــ الحاج محمد صايم زى مانا صايمة .. فضكم يا ولاد من السيرة الغبرة دى فضكم .. قطيعـة .. آه .. حاج محمد .. يا حاج محمد ، شوف يا ختى نسيت أقول لك . يا دى الحوسة .. الارانب أمانة فى رقبتك يا حاج محمد ماتنساش ترمى للارانب فوق السطح قشر العجور .. أمانه عليك .. السيدة فى ضهرك ..
وهنا دق الجرس الاخير .. وعلا الضجيج من كل جانب ..
وتحرك القطار من بين صياح أفراد التخت :
ــ نشوف وشك فى خير يا حاج محمد ..
وبين صياح الحاج محمد :
ــ مع السلامة ..
واختلطت هذه الأصوات بعضها ببعض حتى لم يعد فى مقدور الحاج محمد ولا غير الحاج محمد أن يميز كلمة الأرانب أو جملة نشوف وشك فى خير من بـين هذه الأصوات المختلطة .. ومع ذلك استمر فى هذا الصياح الفريزى كل من الطرفين .. كأنما كل يصيح للصياح نفسه .. الى أن ابتعد القطار .. وعنـدئذ هدأ كل لنفسه ..

جلس أفراد التخت برهة من الزمن فى سكون عميق كأنما فراق مصر ولو لمهمة قصيرة المدى ادخل على نفوسهن أثرا محزنا ووحشة مؤثرة ..

لم يقطع هذا السكون القاتم غير صوت سلم الضريرة قائلة :

— يوه .. شوفى يا ختى نسينا نقول للحاج محمد يشترى لنا دخان .. بقا هو بسلامته باكه السمسون اللى معانه حايكفى طول النهار .. ؟

فلم يجب أحد .. واستمر كل فى سكونه واطراقه.

وأخيرا رفعت الاسطى حميده رأسها قليلا وتنهدت ثم قالت بتأثر :

— يا حبيبتى يامصر ..

وكأن هذه الجملة كانت تعبر تماما عن احساس الجمع .. فأطرق الكل لحظة ..

ثم بدأ كل يرفع رأسه وينظر حوله ليرفه عن نفسه فقالت سلم العاجزة :

— كلها بكره ونرجع تانى لبلدنا ..

وقالت نجية الطبالة بابتسام وعيناها ترمقان المقعد التالى :

— وهى اسكندرية وحشة .. ؟ والنبى اسكندرية روح ...

وقالت فاطمة الرقاصة وعيناها كذلك ترمقان بدلال المقعد التالى الملاصق :

— اسكندرية مريه وترابها زعفران ..

وهكذا أخذ يسرى عن الجميع .. وتتلاشى آثار الوحشة .. فعاد الصفاء الى وجه الاسطى حميده وقالت :

— سلم .. لفى لى سجاره ..

تناولت سلم علبة الدخان وجعلت تلف سجارة بينما أخذت الاسطى حميده تلتفت حولها متصفحة وجـوه المسافرين .. ثم نظرت الى فاطمة ونجيـة وقالت بتهـكم :

ــ حسره وندامه على دول ركاب ..

□*□

أصابت الاسطى حميده .. فى الواقع أغلب الركاب كانوا من الصعايدة والفلاحـين .. ومع ذلك فان الاسطى حميده بعيونها الكحيلة لم تلمح خلفها أصحاب المقعد التالى الملاصق .. أصحابه أربعة .. ثلاثة افندية .. ورابع يرتدى بنشا وطربوشا ..

واذا أرادت الاسطى حميده أن تعرف أكثر من ذلك فلتعلم أن هؤلاء الاربعة من حين أن تحرك القطـار لم يفتروا لحظة عن النظر اليها والى هيئة التخت ما عدا سلم العمياء . واذا أرادت الاسطى حميده افصاحا فلنسل عيون نجية وفاطمة .

لفت سلم السجارة ثم دقت على صدرها قائلة :

ــ يوه .. يا ندامة الشوم .. مامعناش كبريت .

وفى هذه اللحظة ظهر مفتش التذاكر ودق على جدار العربة بكماشته وصاح :

ــ تذاكر قليوب ..

فصاحت سلم وهى تدير وجهها نحو مصدر صوت المفتش :

ــ يا حضرة المفتش .. ما معاكش كبريت الهى ما تغلب لك وليه .. ؟

فأجاب المفتش ببرود :

ــ كبريت ايه .. ؟

فقالت الأسطى حميدة متلطفة :

ــ ما تآخذناش بس تولع السجارة ..
فقال المفتش بتحفظ وبغير أن يلتفت نحوهن :
ــ انتم فاطرين رمضان والا ايه .. ؟
وكان قد وصل الى المقعد التالى الملاصق فسرعان ما تنحنح لابس البنش ورأى الفرصة سانحة للكلام فقـــال :
ــ الفطار مباح لأهل الحظ يا سيدنا المفتش .
فلم يجب المفتش .. بل لزم بروده وتحفظه .. وجعل يؤدى أعمال وظيفته بجد جاف .. الى أن ابتعد فقالت الاسطى حميده :
ــ يا سم على ده مفتش ..
فردت فاطمة وهى تنظر الى الافندية اصحاب المقعد الملاصـــق ..
ــ يا ختى حقا ماله انط كده ومتعنطظ بعيد عنك .
فتنحنح لابس البنش وقال :
ــ ما هو اللى زى ده من غير مؤاخذة فاهم نفسه الحكومة ...
فصادقت فاطمة على كلامه .. ثم أخذ الجميـــع العوالم من جهة والافندية من جهة أخرى يتحـــدثون لحظة على حساب هذا المفتش .. الى أن قال أحد الافنـــدية :
ــ جرى خير .. الحمد لله ..
وقال الثانى بلطف :
ــ الكبريت معانه يا ستات .
وزاد الثالث :
ــ ومعانا سجاير كمان ..
ثم تنحنح لابس البنش وقال :
ــ حضرتكم نازلين فين .. ولو فيها رزالة .. ؟

فردت سلم بسرعة كأنها مغتبطة بمعـــرفة هؤلاء الذين معهم الكبريت والسجاير ..

ــ سيدى جابر يا ادلعدى ..

فصاح الرجال :

ــ زينا بقا .. سكة واحدة انشاء الله . احنـــا نازلين اسكندرية ..

واضاف أحد الافندية :

ــ الليلة باذن الله نصلى التراويح فى ســــيدى ابو العباس ..

وتنحنح لابس البنش مرة أخرى ثم قال :

ــ أظن حضرتكم مسافرين فى فرح ؟

فقالت الاسطى حميده بعظمة وتفاخر :

ــ أيوه يا فندم .. فرح اسم الله محمد بك .. محمد بك .. ايه يابت يا فاطنه .. ؟

فردت فاطمة بسرعة :

ــ محمد بك قطبى .

فنظرت الاسطى حميده الى الافندية وقالت :

ــ محمد بك قطبى من أعيان اسكندرية على سن ورمـــح ..

ــ انعم واكرم ..

أردف أحد الافندية :

ــ محمد بك قطبى .. اظنه راجل كبير .. ؟

فأجابت سلم العاجزة :

ــ العريس . لا وحياتك الا حتة جدع خفة مشلبن يشفى العليل ..

فالتفتت اليها نجية قائلة :

ــ أنت يعنى شفتيه .. ؟

فردت ســـلم :

ـــ الحاج محمد كان بيقول المريس جدع صفار .
وفى هذه الأثناء أخرج أحد الافندية من جيبه علبة السجاير ودارها على أفراد التخت وقال وهو ينظر الى فاطمة الرقاصة :

ـــ أظن الست الصغيرة هى التى حاتلم النقطة ؟
فأجابت فاطمة بدلال :
ـــ أيوه يا فندى ..
وقال آخر وهو ينظر الى نجية :
ـــ والست أمال أيه .. ؟
فأجابته نجية بابتسام :
دربكه يا فندى ..
وقال الثالث لابس البنش للاسطى :
ـــ احنا من حق بدنا نتشرف بالاسم الكريم .
فأجابت الاسطى حميدة بخيلاء :
ـــ حميده المحلوية .. واسأل فى حتة باب الخلق الف من يذلك ..
فقال الجميع باحترام :
ـــ انعم وأكرم ..
ثم قال احدهم وهو يشير الى العود :
ـــ حضرتك بقا الاسطى العوادة ؟
فأجابت : ايوه يا فندم .
فتنحنح لابس البنش وقال :
ـــ ما شاء الله .. ما شاء الله .. العود سلطان الطرب .. يا سلام ..
وقال آخر :
ـــ معلوم . دا بو المغنى والحظوظ ..
ثم صمت الجمع لحيظة .. قطعتها سلم بقولها :
ـــ يعنى ما حدش سألنى أنا رخره ابقى ايه .. ؟

فارتبك الرجال وخجلوا قليلا وتمتموا باعتذارات واهية .. ثم أراد أحدهم التخلص من هـذا الموقف فأخرج من جيبه علبة السجاير ودارها من جديد على افراد التخت .. غير أن سلم بعد أن مدت يـدها وتناولت سجارة قالت عابسة :

— بس كتر خيرك يا فندى .. احنـا ما نشربش غير سمسون فرط ماركة الغزالة .

وهنا كان القطار قد وصل الى محطة قليوب فأبى الافندى الا أن يشترى لسلم باكه سمسون من المحطة

□*□

ما غادر القطار محطة قليوب حتى كانت العلاقة قد استحكمت تقريبا بين أصحاب المقعد التالى الملاصق وبين هيئة التخت .. فتنحنح لابس البنش وقال :

— بقا يا اسطى حميده صلى على النبى .

فقـالت :

— اللهم صلى وبارك عليه ..

فاستطرد لابس البنش :

— بقا احنا ولا مؤاخذة ناس صايمين . والصايم له الحق فى التسالى .. ولا أنا غلطان .. ؟

وأردف أحد الافندية :

— والله تكسبوا فينا ثواب ..

وزاد آخر :

— لأ .. وكمان يبقى زكا عن فطاركم .

فأجابت الاسطى حميده وهى تزجج حاجبيها بعود ثقـاب :

— صوتى مبحوح شوية ..

فقال لابس البنش :

— صوتك المبحوح ده سلطان الطرب ..

وقال احد الافندية :

ــ أنا عايز اسمع فى العشق قضيت زمانى لان نعيمة المصرية .. فقاطعته الاسطى حميده صائحة باحتقــار :

ــ يا دهوتى .. نعيمة المصرية تعــرف تقول فى العشق قضيت ..

فقال الافندى بخبث :

ــ ما أنا بقول كده برده ..

وهزت سلم رأسها ثم قالت :

ــ يا حضرة الافندى اللى يسمعنا ما يسمعش نعيمة المصرية ..

فأجاب الافندى :

ــ أيوه ما هو ناوى ما اسمعهاش ..

وصادقت الاسطى حميده على قول سلم براسهــا ثم صاحت بحماس وخيلاء :

ــ قولى له .. قولى له .. انا مين .. ؟ ده انا حميده المحلوية يا مزغرطات ..

فصاح لابس البنش باحترام :

ــ مفهوم يا فندم . ونعم ..

وفى أثناء حماس الاسطى حميده انحدر راس ملايتها بدون أن تشعر فظهر الصفا الذهبى البراق الــذى يزين شعرها كما ظهر منديل الترتر فى مقدم رأسها يخطف الابصار . .وتنبه الرجال الى ذلك فأخــذوا يختلسون النظر الى شعرها ما بين فترة وفترة .. ولاحظت ذلك منهم فاطمة الرقاصة فأسرعت بتنبيــه الاسطى مخاطبة اياها باللغة الاصطلاحيــــة بين العوالم ..

ــ اطسا .. يا اطسا .. افصك نايب .. اى :

« أسطى .. يا أسطى صفاك باين . » ولكن الاسطى لم تسمع أو لم ترد أن تسمع متشاغلة بتزجيج حاجبيها بعود الثقاب .. ولاحظت نجية الطبالة أيضا نظرات الرجال الى شعر الاسطى فسرعان ما انضمت الى زميلتها فاطمة فى تنبيه الاسطى ..

— اطسا ، افصك نايب يا ختى ..

فلم تنتبه الاسطى .. وانتبه أحد الافندية الى هذه الجملة الغريبة .. فلم يفهم معناها وقال :

— اطسا .. اطسا دى فين .. ؟ دى وجه قبلى؟

فقال لابس البنش :

— لا لا .. دول بيضربوا بالسيم ..

واشتدت حدة فاطمة لتغافل الاسطى حميده ولنظرات الافندية لشعر الاسطى فصاحت بغيظ :

— يا ختى ما تسمعى أمال .. افصك نايب ..

ورددت نجية كذلك بغيظ وغيرة :

— يا ختى الحقى افصك باين .

فانتبه أحد الافندية وقال ضاحكا :

— افص مين اللى باين .. ؟

فاستدركت نجية بسرعة صائحة :

— يوه .. يادهوتى .. شوف ياختى .. قال بدى اقول أفصك نايب .. قلت أفصك باين ...

ثم ضحكت ضحكة رنانة .. هى التى نبهت الاسطى فالتفتت ونظرت اليها شزرا ثم قالت :

— هلبت انسخطتى لما ترقعى الصهلولة كده فى وسط الباجور .. ؟

فقالت نجية :

— اصلى غلطت وانا بضرب بالسيم قطيعه ..

وعادت الاسطى حميده الى حاجبيها وعود الثقاب فقال لابس البنش بتوسل :

ــ يا أسطى حميده .. أنا محسوبك .. التقل على الصايمين حرام ..

فأجابت الاسطى بتيه ودلع :

ــ حاضر .. من عينى ..

فقال أحد الافندية :

ــ « فى العشق قضيت » ..

فأجابت الاسطى بدلال :

ــ حاضر ..

فقال افندى آخر :

ــ مش حاضر وبس .. لأ .. احنا محاسيبك ..

فقالت الاسطى :

ــ من عينى .. حاضر ..

فقال لابس البنش مشيرا الى العود .

ــ العود ما هو جنبك أهو يا أسطى حميده .

فأجابت بتقل :

ــ حاضر .. حالا ..

ثم نظرت الى نجية وقالت بصوت يسمعه الافندية:

ــ آه .. يا ما روحى بتشفشف على فنجان قهوة ســـادة ..

فقال لابس البنش :

ــ لك علينا يا أسطى حميدة لما نوصل بنها ..

وقال أحد الافندية منتهزا الفرصة :

ــ مش نسمع « فى العشق قضيت » يا أسطى حميده والا ايه .. ؟ احنا نرجوك رجا خصوصى ..

فأجابت الاسطى بدلال وتقل بنت الكار :

ــ حاضر .. امسكى الرق يا سلم ..

ثم نظرت الى فاطمة وسألتها همسا بالسيم :
ــ بت يا فاطنه..بصى فى وشى .. هلبت ماحاجب خفيف وحاجب تقيل .. ؟
وفى هذه اللحظة حضر المفتش ليفحص تذاكر من ركب من قليوب .. فقال لطائفة التخت بلهجته الجافة المتحفظـــة :
ــ ما زادش عليكم حد .. ؟
فأجابته الاسطى حميده وهى تخط حاجبها الخفيف بعود الثقاب .
ــ ما زاد علينا الا الخطوط ..
فانصرف المفتش خشية أن تنقص هيبته بمـــزاح هذه الطائفة .
وما كاد المفتش يبلغ طرف العربة الآخر .. حتى دوى فى العربة صوت هيئة التخت باكملها مع الآلات جميعها من عود ورق ودربكة :

« فى العشق قضيت زمانى
وهمى اليـــــوم يـــكفانى
آه انظروا جسمى السقيم»

فوقف المفتش مبهوتا ووقف كل القطار على رجل.
باريس ــ يونيو سنة ١٩٢٧

من رسائل زهــرة العمر

« باريس » — شارع « بلبور » فى نوفمبر ١٩٢٦

عزيزى « أندريه » ..

لست أدرى : أمن سوء حظى أو من حسنه ، أنى أعيش الآن فى أوروبا ، وسط هذا الاضطراب الفكرى، الذى لم يسبق له مثيل ، فهذه الحرب الكبرى قــد جاءت فى الفنون والآداب بهذه الثورة ، التى يسمونها « المودرنزم » ، فكان لزاما على أن أتأثر بهـــا ، ولكنى — فى الوقت ذاته — شرقى جاء ليرى ثقـــافة الغرب من أصولها ، فأنا موزع الآن كما ترى بـــين « الكلاسيك » و « المودرن » ، لا أستطيع أن أقول مع الثائرين : فليسقط « القديم » لأن هذا القديم أيضا جديد على .. فأنا مع أولئك وهؤلاء .

انى أخرج مثلا من « متحف اللوفر » متحمســا لأعمال « تسيان » و « دافنتشى » و « ڤــلاسكز » و « جويا » و « مملنج » و « فان ديك » ، لأدخل بعد ذلك توا معرض الخريف ، أشاهد أحدث لوحات الفن الحديث ، بألوانها الصارخة « الفاقعـــة »، وخطوطها البسيطة العارية .

ان الفكرة المسيطرة على الفن الحـــديث هى : الفطرة والبساطة ، يطلبون فى الفطرة النضـــارة ، ويذهبون فى البساطة الى حد التركيز .. لقد غالوا فى التركيز لدرجة المناداة بفصل عناصر كل فن عن

الآخر فصلا تاما : فالتصوير — وهوفن الألوان — يجب أن يستغنى عن الموضوع ، لأن الموضوع من عناصر القصة ، والشعر — وهو فن الشعور — يجب أن يستغنى عن العقل الواعى « مذهب الدايزم » والموسيقى — وهى فن الأصوات — يجب أن تستغنى عن الشعور ، والنحت — وهو فن الأحجام — يجب أن يستغنى عن الأفكار .. الخ .

وهذا قليل جدا مما جاءت به نظريات « المودرنزم» . ولا أحب الاسهاب فيها ، لأنى أكره النظريات فى الفن، فالفن عندى خلق انسانى جميل لا أكثر ولا أقل ، وقد يكون فى « المودرنزم » نفسه — على الرغم من نظرياته — بعض جمال ، ولكن ذلك لم يدعونى مطلقا الى النداء بسقوط « رفاييل » و « لافونتين » و « بيتهوفن » ، من أجل ثورة تنادى بها طائفة تحاول — بأى ثمن — الاتيان بجديد .. لقد قرأت أخيرا لكاتبة فرنسية « مودرن » ، تقول عن حركة « المودرنزم » ما معناه : ان بعد عشرين قرنا من حضارة مفعمة بألوان البراعة الذهنية ، والحذلقة الفكرية ، وحياة الصالونات ، والاكاديميات ، غدت الدنيا مثل غانية عجوز ، مفرطة فى الزينة والبهرج والأصباغ ، بمقدار بعث فى الناس عطشا الى عصور الفطرة الأولى ، بناسها العراة واحساسها المجرد . وان قيمة الفن الحديث ، هى فى أنه يحاول أن يعيدنا الى النضارة البدائية ، والى مصادر الالهام الأولى . الحديث : سواء فى الروح أو فى الأسلوب ، مستمدة حقا من الفنون الاولى مباشرة .

ان اثر مصر القديمة ظاهر فى العمارات الحديثة والنحت الحديث ، بل ان الامعان فى طلب الفن

فقول هـــذه الكاتبة صحيح ، لأن مصـــادر الفن الفطرى وصل الى حد استلهام فن الزنوج .. ان أثر الفن الزنجى واضح فى التصوير الحديث والموسيقى الحديثة ، والرقص الحديث ..

سأحدثك فى رسالة أخرى – عما سمعت أخيرا من موسيقى .. انى لا أترك الآن أسبوعا واحدا دون ان أذهب الى قاعة « كونسير » « بلييـــل » أو الى « كونسير » « كولون » أو « باذلو » ، بل انى أحضر حفلتين أحيانا فى يوم واحد . ولقد حضرت الاسبوع الماضى ثلاث حفلات موسيقية فى يومى السبت والأحد فقد أدوا فى الاولى : « ذهب الرين » لـــ « فاجنر » ، وفى الثانية : « السانفونى فانتاستيك » لـــ«برليوز» وفى الثالثة « السانفونى » السابعة لـــ « بيتهوفن » سوف أحدثك أيضا عن الموسيقى الاسبانية ، وقـــد حضرت فيها حفلتين : احداهما للموسيقى « هافتلر»، كما أنى محدثك عن الموسيقى الروسية ، بعـــد ان سمعت المرة الثانية «سادكو» لـــ « مسكى كرساكوف»

وعلى ذكر « فاجنر » وصداقته المعروفة للفيلسوف « نيتشـه » كدت ألمس بنفسي أثر تلك الصلة الفكرية بينهما ، وأنا أصغى الى نغمة « سيجفريد » المتكررة. تلك التى يسمونها الـــ «Leitmotiv»

ان استخدام « فاجنر » لنغمة واحدة بالذات ، يطلقها رمزا لكل بطل من أبطال « أوبراته » ، ويجعلها تعود كلما عاد البطل الى الظهور : لتذكرنى بكلمة « نيتشـه » : « هناك حادثة متكررة تعود من آن الى آن فى حياة كل انسان » ..

« باريس » ـــ شارع « بلبور » فى ديسمبر ١٩٢٦

عزيزى « أندريه » ..

أرسل اليك ما كتبته من الرواية منذ شهور ، وهو كما ترى فصل وشىء من فصل ، اقرأهما وأخبرنى برأيك ، وثق كما أخبرتك انه ليس فى عزمى مطلقا أن أتم هذا العمل رواية كاملة ، للاسباب التى ذكرتها لك ، وأزيد عليها سببا آخر : أنى لا أرى بأى أسلوب بدئت ، وبأى أسلوب تختم ..

فأسلوبى الآن خاضع لتطورات سريعة مستمرة . ولقد سبق لك أن أطلعت على قطعة « الحلم »،التى ارسلتها اليك ، وهى تختلف فى أسلوبها عما ستقرأ من هذه الرواية ، على أن الذى أرجوه منك هو أن تعيد الى المخطوطة ، بعد قراءتها ، لأنى لا أملك نسخة أخـــرى ..

« باريس » فى ٢٤ مايو ١٩٢٨

« أندريه » ..

بعـــد بضع ســـاعات أكون قد فارقت « باريس » المحبوبة ...

أسافر هذا المساء بقطار الساعة التاسعة ، وغدا ٢٥ مايو تكون الباخرة « راولبندى » قد أقلعت حاملة جثمانى ، وان سئلت عن الروح قل روحه فى قاعـــة كونسير « بلييل » ..

« أندريه » لست أملك الآن من أمرى شيئا ، الا الابتسام فى وجه القدر الظافر ، ولعل هدوئى راجع الى توقعى هذه الكارثة التى تعرف أنى طالما ترقبت

ساعتها بذعر وفزع .. لقد وقع الأمر المحتوم ، فما تريد أو أريد .. ؟ أملى الباقى معلق عليك..رسائلك يا « أندريه » على الأقل .. رسائلك تحمل الى فى صحرائى نسيم أوروبا العظيمة ! ..

أودعك يا « أندريه » وداعا حارا ، وأودع « جرمين » و « جانو » وقد رأيتهما أمس المرة الاخيرة .. أودعكم وأودع فيكم « باريس » الفن والفكر ! ..

حاشية ــ كنت أريد أن أحدثك عن موسيقى اليوم « ميلهو ــ روسل ــ هونجر ــ سترافنسكى » بمناسبة حفلات هامة قامت بهـــا فرق أجنبيـــة فى باريس فى الشهرين الاخيرين : فرق المانية بقيادة « ماتجلبرج » واخرى نمساوية بقيادة « برونوفالتر » ! .. ان طرق هذه الموضوعات الان لمـــا يزيدنى الما ، على انى أحب ان أقول لك ان سخطى على « سترافنسكى » ، يوم نشر نقده المقذع « لفاجنر » و « بيتهـــوفن » ، قـــد زال بعضه عند سماعى قطعته « تقديس الربيع » مرة أخرى ! .. انه على كل حال تعبير قوى لاتجـــاه جديد فى الموسيقى وأغراضها ، كما يفهمها هذا الروسى الثـــائر .

نسيت أن أخبرك فى رسالتى السابقة أنى شاهدت رواية « هاملت » فى الشهر الماضى يمثلها خير ممثل فى ايطاليا ، حذق هذا الدور وهو «روجيرو روجيرى» ، وكنت قد شاهدتها قبل ذلك من تمثيل « موييسى » ، وهو خير من قام بهذا الدور عينه فى المانيا .. ان مجال المقارنة بين الفنيين لما يحتاج الى رســالة طويلة ، ويكفينى أن أقول لك انه لا يوجد مكان فى العالم ــ ترى فيه الفنون كلها مجتمعة ــ ســوى

« باريس » ! .. « باريس » هى « فترينة » العالم ! نعم .. هى الواجهة البلورية التى تعرض خلفها عبقرية الدنيـا .. أكرر وداعى لك ولبـاريس ، واحـذرك يا « أندريه » من أن تحرمنى ، وأنا بمصر هذا الاتصال بألوان الفن ! ..

« الاسكندرية » فى ١٢ يونيو ١٩٢٨ ..

عزيزى « أندريه » ! ..

أحفظ لك فى نفسى جميلا يضاف الى سوابقه : رسالتك الطويلة التى بادرت باطلاقهـا فى أثـرى ، فأدركتنى ولما أتم الأسبوع فى بلادى ! .. اذا أردت أن تعرف مقدار اغتباطى بهذه الرسالة فاذكـر أنك ضمختها بعطر فرنسا المأسوف عليها !

أود لو أكتب اليك بأخبارى ومشاعرى ، ولـكنى اراها لا تساوى شيئا كلها ، أهى شىء غير اطراق طويل وابتسامة حزينة ، كلها رأفة ورثاء لكل ما يقع أمامى ها هنا ، ويأس قاتل ، وتحرق دائم ، وأيام تجرى كالدموع الباردة ، وحياة أتمنى ردها لخالقها ان لم يعطنى حق استعمالها كما أريد ! .. هل ترانى مستطيعا أن أكون شيئا غير ذلك الان ؟ !

أختتم خطابى سريعا خشية أن يفوت موعد البريد المسافر الى أوربا هذا الاسبوع ، وانى أترقب رسالة منك ، فأنت الذى يقدر على امتاعى بالطريف القيم ، أما أنا فما عندى شىء مفيد أقوله لك ! ..

« الاسكندرية » فى أول يولية ١٩٢٨

عزيزى « أندريه » ! ..

هأنذا أسرع فى الرد على رسالتك راجيا أن تصلك خلال شهر الراحة ، كما تقول ! .. وكل أملى أن يجيئنى منك رسالة عاجلة شافية ، تربو صفحاتها على العشر ! .. فان أول ما يعنينى معرفته حين استلام رسائلك هو وزنها وحجمها ، غير حافل بما تحويه من كلام ، فأنا فى حاجة كما ترى الى مجرد ثرثرتك .. أما أنت فما أظن بك حاجة الى أخبارى، لانها راكدة كالماء الراكد ، ولو بدأ تغير قليل فى مجراها لبادرت باخطارك .. كل ما عندى هو انى أعيش فى جو فكرى — ان كان فى مصر ما يجوز أن يسمى بالجو الفكرى — لا يستطيع أن يعيش فيه مثلى ، وأصدقاء الماضى اصبحوا لا يصلحون اليوم لى ، فحديثهم ونكاتهم وطريقة قتلهم للوقت لمما يزهدنى فى الجلوس اليهم ، وان شئت وصفا دقيقا لحالى فهو يتلخص فى كلمة واحدة : الوحدة ! .. الوحدة فى أكمل وأقسى معانيها ، أمضى اليوم فى القراءة فاذا جاء الغروب خرجت الى «كازينو سان استفانو»، لأسمع القليل من الموسيقى التى يعزفونها هناك ، وحتى فى هذا المكان الصاخب باللاهين أحرص على وحدتى ، فأنزوى خلف عامود قرب « الأوركستر »، متحاشيا نظرات من أعرف ، حتى لا أكلف نفسى عبء التحية ، وهل تتصور أن يكون حالى غير ذلك ؟ ..

لا اكتمك يا « أندريه » ! .. ان صرخة خرجت من أعماق قلبى ، عندما قرأت فى رسالتك خبر حريق قاعة كونسير « بلييل » ! ان الى لهذا الخبر سيتضاعف

كلما نكرت أن هذا الهيكل العظيم هو عندى رمز من رموز الفن فى « باريس » ! .. اكتب الى كتابا مطولا، اذا كنت تعتقد أن أسمى واجباتك نحوى هو التفضل على ساكن الصحراء ببعض نفحات أوروبا العاطرة .

الاسكندرية فى .. ديسمبر ١٩٢٨

عزيزى « أندريه » ! ..

اليوم الخميس ، ولم تصلنا رسالة الخميس ، وقد عودتنا ذلك ووعدتنا به ، هلا رأيت « بول سوديه » ومواظبته على ارسال مقالات الاربعاء ، لجـريدة « الوقت » عشرات الاعوام بانتظام ، لم ينقطع فى خلالها الا لموتين : موت زوجته : وموته هو ! .. وهل تظن أنك أقل من « بول سوديه » فى « وقتى » أنا ؟ .. على انى أسأل لك عمرا أطول من عمره ، وأعطيك أجرا أكثر من الأجر الذى كانت تعطيه اياه جريدة « الطان » ، لو كنت تقدر قيمة الود ! .. تستطيع أن تقول انى أعيش طول الاسبوع على رسالتك ، فاذا كنت تريد أن تحرمنى غذائى الاسبوعى فأنت وشـأنك .

وبعـد ..

فلنتحدث فى اى شىء : قرأت مقال « فرنان فندريم » فى « بول سوديه » وهو خصمه المعروف فى المناضلات الأدبية ، اى جبن وأى نذالة ؟ .. مقال لو انه كتبه وتجرأ على نشره فى حياة الناقد العظيم : لمـا استطاع الاقامة بعدها فى فرنسا يوما واحدا .. ولكنه الان يقول ما يريد ، لأن الميت لا يستطيع جوابا .. لقـد جرد « سوديه » من كل حسنة ، والصق به من

النقص ما يخرجه عن وظيفة ناقد .. ولكن أعجب ما جاء فى مقاله عن « بول سوديه » قوله : ان الجانب الفنى فى الأعمال الادبية كان يفلت منه دائما : لأنه لم يمارس بنفسه التأليف من حيث هو خلق فنى ؟ ! .. فما قول « فاندريم » هذا فى فلاسفة الألمان ، ممن نقدوا الفن من «عمانويل كانت» الى « فردريك نيتشه » ، وما قوله فى الذين شرحوا لنا ونقدوا فن « فيدياس » و « بوليكليت » و « براكسيتيل » وهم لم يصنعوا قط تمثالا من الطين أو العجين ؟ .. وما قوله فى « جول لمتر » و «سارسى» و « تين » وقد قضوا حياتهم ينقدون فنونا لم يمارسوها قط بأنفسهم ، حتى العرب ونقاد الشعر العربى فى آدابنا ، مثل « الاصمعى » و « حماد عجرد » لم يمارسوا هذا الفن مع روايتهم لكل ما قيل فيه ، وانى لاذكر قول أحد نقاد العرب هؤلاء ، وقد سألوه كما سأل — فانزيم بول سوديه — لماذا لا يقرض الشعر ؟ فأجاب : أنا كالمسن يشحذ ولا يقطع ، ولكن «فاندريم» يريد أن يقطع أوصال جثة خصمه وكفى ! ..

انى لم ازل أطالع رسالتك الماضية فى اعجاب .. ان فيها أشياء أقرؤها ببطء ، فتؤثر فى نفسى تأثيرا شديدا ، ذلك أنها تجعلنى أتصور أنى ما زلت اقيم فى حجرتى بشارع « بلبور » وا أسفاه ! .. يخيل الى أنى نسيت رقم الحجرة فى الطابق الخامس ، اظنها كانت رقم « ٤٨ » لأنها « هى » كانت تقطن الحجرة رقم « ٣٨ » .. انى ان نسيت رقم حجرتى فلن أنسى مطلقا رقم حجرتها . أما الببغاء .. آه يا « أندريه » ! .. ترى أين هو الان ؟ . أو لم يزل يحمل اسمى كما كان ؟ .. فيظل بذلك اسمى يردد

صداه فى « باريس » .. على الاقل حتى يمـــوت البيغاء ! .. انى أعرف أن هذا الطائر طويل العمر ! نحن ــ معشر المصريين ــ نفكر دائما فى تخليـــد أسمائنا ، ولقد اتخذ جدى الاهرام لهذا الغــرض ، ولكنى أنا اكتفيت باتخاذ ببغاء .. على قدر مالى واستطاعتى .. الا ترى أنى مصرى بالدم والوراثة ؟

« أندريه » ! .. أكتب الى كثيرا .. ذكرنى بحجرتى فى شارع « بلبور » . ترى من يقطنها الان ؟ .. أحد العمال ولا شك أو احدى العاملات ، فهذا حى عمال وعاملات .. ومن يدرى ؟ فقد يكون من سكانهـــا اليوم محبان عاشقان .. أو زوجان سعيدان . اما انا مع الاسف فلم أعرف فى هذه الحجرة غير حيـــاة شبه زوجية فاترة مع « ساشا شوارتز » ، وحيـــاة حب مع « ايما دوران » ، لم يدم هناؤه طويلا ! ..

الاسكندرية فى يناير ١٩٢٩

عزيزى « أندريه » ! ..

تسألنى من هى « ساشا شوارتز » ؟ .. عجبا ! ألا تذكرها ؟ .. أو لم أقص عليك قصتها من قبل ؟ .. أهان أمرها على بهذا القدر الذى لم يتم ، ولا يمكن أن يتم .. ؟ !

حدث ذلك يا سيدى فى مساء يوم جميل جلستفيه مـــع « مسـيو هنب » الى مائدة مشرب صـــغير فى « مونمارتز » . وكنا نتحدث فى أمر حوار صغير كنت قد كتبته ، ودفعت به اليه ليرى رأيه فيه ، فرآه خفيف الروح قوى التركيب سلسا سائغا ، يستلب لب القارىء استلابا .. وقال لى : « انى أراك قـــد

اعتصرت « موليير » و « بومارشيه » و « ماريفو » اعتصارا ! .. » ففرحت بقوله هذا كثيرا ، وطلبت كأسا أخرى من « البرنو » .. وما كدت أتناول منها جرعة حتى دخلت المشرب غادة ذات جسم ، نكرنى بتمثال « افروديت » . وكان فى صحبتها شـــاب برنزى اللون جميل الطلعة كأنه « أبولون » .. ولست أدرى أسكرت من « البرنو » ، أم من اطراء صاحبى ، ام من روعة هذه الغادة .. كل ما أذكر أنى تمايلت على « مسيو هاب » صائحا : « ناد الجرســـون واطلب سكينا ! .. » فقال دهشا « سكينا ؟ .. تصنع به ماذا ؟ .. » فقلت : « أقتل نفسى عند أقدام هذه المرأة ، حبا وجنـــونا وغـــراما ! .. » فالتفت « هاب » الى المرأة ثم الى صاحبها وقال لى : صدقت، ولكنها كما ترى ذات رفيق وأى رفيق .. لا أمل لك أيها الصديق .. اذا أصررت على السكين فانى أنادى الك الجرسون ! .. » ولبثنا ساعة ننظر اليها ونتحسر ثم نهضنا وانصرفنا كل الى شأنه ، ومضت أيام قلائل واذا مسيو « هاب » فى أثرى يبحث عنى فى مظانى ، حتى عثر بى فبادرنى صائحا : أين أنت ؟ .. أين أنت ؟ .. أيها الرجل السعيد ! .. افرح بسرعة فان عندى لك خبرا سارا .. انها لك منذ اليوم خالصـــة مخلصة ! .. فلم أفهم مراده بادىء الامر ، وقلت له: عمن تتكلم ؟ .. فقال : عنها هى .. عن تلك المرأة ، فقلت : أى امرأة ؟ .. فضاق صدره بى : عجبـــا لك ! .. أى امرأة ؟ .. المرأة التى رأيتهـــا فى المشرب منذ أيام ! .. فتذكرت كل شىء وصحت : حقا ! .. حقا .. أخبرنى ما خبرها ! .. فقال : « يا للحظ عندما يواتى الانسان ! .. لقد كنت بهذا المشرب

البارحة ، واذا بى ألمح امراة جالسة الى مائدة بجوارى أمامها « بوك » من البيرة لم تمسه شفتاها ، وقد أخفت وجهها فى منديلها ، وطفقت تبكى بكاء مرا .. فعجبت لامرها ولبثت أرقبها حتى تبينت آخر الامر أنها صاحبتنا « افروديت » ، فتحينت منها الفرصة وحادثتها ، ولم أزل بها حتى اطمأنت الى ، وكشفت لى عن بلائها : صاحبها البرونزى اللون وهو أسبانى يدعى « جارسيا » ، قد هرب الى بلاده ، وهجرها بلا مأوى ولا نقود ولا معين .. وهى أجنبية هى الاخرى ـ ألمانية أو روسية لست أدرى على التحقيق اسمها « ساشا شوارتز » ، وهى تجيد الفرنسية ، وقد كانت تعمل « سكرتيرة » فى احدى وكالات السفر، فالتقت بهذا الشاب الاسبانى فاستلب لبها وأخرجها من عملها ، وختم قصته معها على هذا النحو ، وليس من اليسير أن تجد سريعا عملا يقيها شر الجوع ، فهى لا ترى فى رأسها غير أفق حالك ، تبدو منه فكرة الانتحار ، كأنها شمس سوداء ! .. فبادرتها صائحا مرتاعا ، « تموتين ؟ .. أنت ؟ .. مهلا يا سيدتى مهلا ؟ .. تموتين وعندى شخص يموت فيك حبا وهياما وغراما ! .. فنظرت الى بعينين كلهما دهش واستفهام ، فأخبرتها بخبرك وضربت لها موعدا مساء اليوم بذلك المشرب لاقدمك اليها .. كل أمل هذه المرأة الان هو أن تجد لها مأوى ومعينا، ولا شك عندى فى أنك مستطيع أن تحقق لها هذا الامل .. » تصور ذهولى يا « أندريه » وأنا أسمع من مسيو « هاب » كل هذا .. لقد حسبته يمزح ولكن الموعد حانت ساعته ، فلم أر فائدة فى اللجاج ، فجلست معه أنتظر ، واذا بالفعل .. أبصر لدهشتى

« افروديت » تدخل علينا فى حال كسيرة ، وقد أفسدت الدموع أهدابها ، وأنساها الحزن الالتفات الى هندامها ، فنهض « هاب » لاستقبالها ونهضت أنا أيضا كالخجل المأخوذ ، وحياها صاحبى الطف تحية وقال لها باسما وهو يقدمنى اليها : « كنت تريدين الانتحار يا آنستى ، فها هو ذا شىء أهون قليلا من الانتحار .. » فنظرت الى الفتاة بابتسامة وديعة ، فيها أثر الحزن وفيها أيضا الاستسلام ، وكان كل شىء فيها ينطق : « ليس الان أوان الفحص والفرز والاختيار » ، وتركنا « هاب » ، وقد رأى أن مهمته قد انتهت ، فلبثنا وحدنا لحظة صامتين ، لا ادرى ماذا اقول .. الى أن سألتها آخر الامر عن أمتعتها فقالت لى : انها مودعة عند صديقة لها متزوجة . اضافتها الليالى السابقة .. ولم يعد من اللائق ان تفرض ضيافتها على اسرة أكثر من ذلك ، وكانت تلك الاسرة تقطن ضواحى « باريس » والوقت ليل ، فرأينا أن نرجىء طلب الأمتعة الى الصباح وذهبت بالغادة الحزينة الى احد المطاعم فتعشينا ، وأنا أحاول اضحاكها والتسرية عنها ، ثم قدمتها الى مسرح تعرض فيه رواية « فودفيل » مفرحة ، فانتعشت قليلا ، وضحكت مع الضاحكين ، وخرجنا وقد أنست الى بعض الشىء ، وبدأت تتوطد بيننا الالفة ، وذهبت بها الى حجرتى بشارع « بلبور » ، فسرت كثيرا بالمطبخ الصغير الملحق بالحجرة ، وما فيه من أدوات لشىء اللحم وجهاز لموقد يشعل بالغاز ، وسألتنى أن أعيرها تلك الليلة « بيجاما » مما أرتديها للنوم ، ففعلت ، وتشاغلت بالنظر فى كتبى المكدسة فوق المكتب ، ولك أن تصدق أيها الخبيث « أندريه » أو لا تصدق ، فو الله

لم أحاول اختلاس النظر اليها ، وهى تخلع ثيابها ولا أذكر أين فعلت ذلك .. هل خلف خزانة الثياب أو فى المطبخ ، كل ما أذكر أنها طلعت على فجأة وهى مرتدية « البيجاما » ، ويكاد نهداها البارزان يفتقان الرداء ، فوقع الكتاب من يدى ، فابتسمت .. ابتسمت « افروديت » ، وكانت ليلة لا تنسى .. وبزغ الصبح، وفتحت عينى وقد راحت السكرة ، وجاءت الفكرة .. ونظرت الى تلك المرأة النائمة فى فراشى وقلت لنفسى: « ماذا أنا صانع بها .. اليوم الاحد وهو يوم زيارتى المعتادة لمتحف اللوفر .. هل أصحبها ؟ .. انها لن تطيق المكث فى هذا المتحف ست أو سبع ساعات ، كما أفعل ، واذا احتمات فانها لن تستطيع الوقوف ساعة أمام الصورة الواحدة ، كما أصنع ، واذا فعلت فانها لن تسكت عن بعض التعليقات السخيفة التى تبدد جو تأملاتى ، وتفسد على نظام تفكيرى .. ثم انها ستغير برنامج حياتى ! .. انى الان آكل وأعمل وقتما وحيثما أريد ، ان حياتى غير المقيدة بمكان ولا بزمان ولا بانسان ستصبح منذ اليوم داخل اطار محدود من صنع هذه المرأة .. انها عبء وتبعة ، انى لم أخلق لأسير فى الحياة وامرأة معلقة بذراعى ! ونهضت من فراشى على عجل ، وارتديت ثيابى ، وكتبت كلمة تركتها لها فوق المكتب خلاصتها : انى رجل بوهيمى ، لا يصلح لرعايتك ، والسهر على راحتك ، فأرجو أن تخلينى من تبعة اسعادك ! .. فانى لست لهذه النعمة بأهل .. » ! .. والقيت عليها نظرة أخيرة ، وهى فى نومها العميق المطمئن .. وانصرفت .. ذهبت توا الى مسيو « هاب » ،وأخبرته بما حدث فكاد يصعق ، فهدأت من روعه وضاحكته

قائلا : « لا تنس أنى رجل شرقى متوحش ! .. المرأة عندى يجب أن تحبس فى « الحريم » أو على الاقل لا يكون لها دخل كبير فى حياتى ، اذا أرادت « ساشا » أن تتخذ من مسكنى مأوى لها ، فلا مانع لدى .. على شرط تتركنى حرا .. فلا خرج معى .. ولا تشعرنى بأن لها فى حياتى وجودا ! » ..

ففهم « هاب » مرادى وقال : « لا بأس ! .. أظنها ترضى بهذا الشرط .. ولكن نفقات طعامها ؟ .. فقلت له : « فى مقدورى أن أعطيها كل يوم ثمانية فرنكات أو تسعة فقال « هاب » : « لغذائها وعشائها معا ! .. » قلت « نعم » فقال : « اجعلها عشرة فرنكات » ! .. فقبلت ، وتعهد هو بأن يلقاها فى ذلك اليوم ، ليعرض عليها هذا الوضع الجديد ، وانصرفت أنا الى « متحف اللوفر » ، فغرقت طول يومى فى قاعة الفن الاغريقى متنقلا بين تماثيل « بالاس » و « أبولون » و « فينوس » فى أوضاعها المختلفة .. آه يا « أندريه » .. ان فن الاغريق هو تجميل الطبيعة الى حد اشعارها بنقصها .. لكأنهم يريدون أن يقولوا للطبيعة : انظرى .. كان ينبغى أن تصنعى هكذا ! . . .

ومضى أكثر النهار ، فدلفت الى قاعة الفن المصرى القديم . ولا يفصل بينها وبين قاعة الاغريق — كما تعلم — غير باب صغير ، ما كدت أتخطى العتبة حتى شعرت بفرق عجيب .. انه عالم آخر .. ان فن مصر القديمة هو تحد صارخ للطبيعة ، لكأنهم يقولون للطبيعة : أنظرى .. لا شأن لنا بك .. ولا بمخلوقاتك

اننا نستطيع من مخيلتنا ومن تفكيرنا أن نخرج مخلوقات أخرى غريبة عجيبة لم تخطر لك على بال »
على أن الذى استلفت نظرى فى هذا الفن ، هو أن أسلوبه قد أوحى الى أسلوب الفن الحديث فى العصر الحاضر الى حد كبير ، وخرجت من « اللوفر » وأنا أقلب فى راسى الملاحظات والمقارنات .. وذهبت الى مطعم صغير أتناول عشائى .. ثم عدت الى مسكنى فوجدت المسكينة « ساشا » قد غادرته تاركة لى هذه الكلمة فوق المكتب :

« سيدى ! .. انك لا تريدنى ، ولكنى أبحث عبثا ، واستعرض فى ذاكرتى كل ما حدث أمس ، فى المساء والليل : علنى أجد اللحظة ، التى أكون قد خيبت ظنك فيها ، وليس فى مقدورى سؤالك أو الاستفسار منك ، فلقد ذهبت تاركا لى تلك الكلمة التى تدعونى فيها — على نحو ظاهر — الى الرحيل ! .. اذن .. فلم يبق لى الا أن أسير فى طريقى .. أود على كل حال لو حدثتك مرة أخرى ! .. فاذا لم تر بأسا فى ذلك فانى أرجو منك أن تبعث الى كلمة بعنوان صديقتى المسطور فى أعلى خطابى » .

فى الحق يا « أندريه » انى تألمت وندمت ، لقد كان تصرفى خاليا من الرفق والرحمة ، ولبثت أفكر وأنا أجيل النظر فى حجرتى الخالية .. ان وجود هذه المرأة هاهنا ليس عبثا بالقدر الذى تصورته .. انها كانت تملأ المكان على كل حال بعطرها النسائى ، فتغير قليلا من هذا الجو المغبر بتراب الكتب . ما أجملها عندما كانت مرتدية ثوب النوم الذى أعرتها اياه البارحة !! .. ليتها تعود .. ما أوحش الليل بدون امرأة ! . .
وقضيت ليلة مضطربة ، وفى اليوم التالى ذهبت اليها

فى مسكن صديقتها . وحملتها هى وامتعتهـــا فى سيارة ، وعدت بها الى حجرتى بشارع « بلبــور » ، وأخبرتنى فى الطريق أنها التقت بمسيو « هاب » فى اليوم السابق ، وأنه أخبرها بالشرط والنظام الجديد ، فعاهدته على القيام بتنفيذه على أدق وجه ! .. وهكذا استقر بنا الحال أياما : وكان لحجــرتى مفتــاحان استبقيت واحدا وأعطيتها الاخر : فاذا كان الصباح تركت لها فوق مكتبى الفرنكات العشرة ، ثم انطلقت حرا طول يومى ، فلا أرى لها وجها الا ليــلا .. هناك أحيان يحلو لى فيها أن الزم حجــرتى : لاكتب الساعات الطوال .. فما كانت تنبس بحرف ، بل كانت تقرأ ، تقرأ كل ما يقــع تحت يدها من كتبى المكدسة .. لقد عجبت اول الأمر لكثرة مطالعتهــا ولاجادتها لغات عدة .. الى أن قصت على نشأتها .. وعلمت أنها ابنة مدير احدى شركات السكك الحديدية فى المانيا .. فلما انهارت الشركة بعد الحرب بانهيار « المارك » والنظام الاقتصادى الألمانى : انهــارت أسرتها أيضا : فمات أبوها ، وتشرد اخوتها واخواتها فى أرجاء أوروبا ! ..

ونزحت هى الى « فرنسا » حيث وجدت ذلك العمل الذى شغلته فى وكالة السفر ، حتى فقدته هو الاخر ، جريا وراء قلبها ! .. انها بوهيمية من الطــــراز الأول ! .. على انها لم تفهمنى أيضا ، كما كان ينبغى، فانه لم يمض على نظامنا هذا عشرة أيام ، حتى نسيت مرآميه وأعراضه ، واذا هــى تترك لى فــوق مكتبى هذه الكلمة :

« عزيزى ! .. انك تتغيب طويلا .. لكأنك تتعمد الهرب من حجرتك ، ومن وجودى ، على الرغم من

الجهد الذى أبذله حتى لا أضايقك أو أثقل عليك ! .. وحدتك هذه تكاد تشعرنى بأنها مظهر استياء منى ، وانى لأبحث عبثا عن السبب .. يا صديقى العزيز ! انى لأرجوك من كل قلبى أن تخبرنى عما لا يعجبك منى ! .. قلها بصراحة .. فربما كان فى الامكان رتق رباط الثقة والاطمئنان الذى يصل أحدنا بالاخر ! .. هذه الثقة ، والاطمئنان الذى تخلو منه نفسى فى هذه اللحظة ، ربما كنت مخطئة فى هذه التقديرات ! .. ربما كنت مسرفة فى الوهم . فأخذت شغلك بعملك على أنه شغل عنى ! .. مهما يكن من أمر فطمئنى بكلمة ! .. انى حزينة جدا .. انى خارجة أستنشق بعض الهواء . وأرفه عن نفسى قليلا .. ولكنى أرجو أن تكون على ثقة من ان اخلاصى هو لك وباق لديك ! .. » .

الواقع يا « أندريه » انى أعجبت لهذا الخطاب ! .. ان الاخلاص أو الحب ، أو أى عاطفة من هذا النوع لم تكن داخلة ضمن الشرط بأى حال ! .. وانى لأعلم ان « ساشا » لم تحبنى على الاطلاق ! .. حقيقة هى لم تذكر لى شيئا عن صاحبها الاسبانى منذ مجيئها ، ولكن ليس معنى ذلك انها نسيته ! .. لقد كانت تقرأ ذات ليلة فى الفراش كعادتها قبل النوم ، وكنت انا اكتب على مكتبى او أطالع ، واذا بى أسمع صوت عبرات مكتومة ، فرفعت عينى فوجدتها تحاول اخفاء بكائها ، فسألتها عما بها ، فكانت صريحة وقالت : ان يدها وقعت تلك الليلة على « دون كيشوت » واقاصيص نموذجية من أعمال « سرفانتز » فغمرها فى ذكريات ثم قالت وهى تمسح دموعها بيدها :

« لم أكن أعلم أنى أجد هنا كتبا اسبانية » ، فقلت

لها : عجبا ! .. أو كنت تريدين ان اتجاهل الادب الاسبانى ، وأستبعد مؤلفات « سرفانتز » ، ومسرحيات « كالدرون »، وكوميديات «لوب دى فيجا» لأن لك خليلا اسبانيا ؟ .. » أجل يا « أندريه » .. لم يكن بيننا حب قط .. ولا أنكر أننا تبادلنا كلمة واحدة فيها حرارة العاطفة الملتهبة ! .. هذا شيء لا يمكن أن يحدث مع امرأة موجودة .. موجودة أمامى فى كل وقت ! .. ان اللحظة الوحيدة التى أحببتها فيها حقا هى ساعة دخولها المشرب أول مرة مع صاحبها الاسبانى ! . انها كانت رائعة ، لأنها كانت شيئا فى السماء ، مثل كوكب يتلألأ ، لا يمكن أن تمتد اليه يدى ، ولكن هذا الكوكب ما لبث أن وقع فى كفى ، فاذا هو مصباح ضئيل ، يحتاج الى يدى القاصرة لتملأه بالزيت ، وتحميه من التحطم والسقوط ! . . انى لم أزل أحب « ايما » لانها شيء بعيد..غير موجود فى كل وقت ، يصل الى غناؤها من نافذتها : كأنه شعاع يأتينى من بعيد ! .. انها أعطتنى بعض أسرار نفسها وجسمها .. ولكنها مع ذلك ليست فى يدى ، شأنها شأن الطبيعة التى تعطينا وتستعصي علينا .. ان الحب قصة لا يجب أن تنتهى .. قصة « ايما » مستمرة لا تريد أن تنتهى .. ان الحب مسألة رياضية لم تحل .. ان جوهر الحب مثل جوهر الوجود ، لابد أن يكون فيه ذلك الذى يسمونه « المجهول » أو « المطلق » . ان حمى « الحب » عندى هى نوع من حمى « المعرفة » واستكشاف المجهول والجرى وراء المطلق .. ماذا يكون حال الوجود لو أن الله قذف فى وجوهنا — نحن الآدميين — بتلك المعرفة أو ذلك المطلق الذى نقضى حياتنا نجرى وراءه ؟ ! .. لا أستطيع

تصور الحياة يومئذ ، انها ولا شك لو بقيت بعد ذلك لصارت شيئا خاليا من كل جمال وفكر وعاطفة ، فكل ما نسميه جمالا وفكرا وشعورا : ليس الاقبسات النور التى تخرج أثناء جهادنا وكدنا وجرينا خلف المطلق والمجهول ! ..

لو أن « ايما » قبلت أن تترك حجرتها كما عرضت عليها وتأتى لتقطن معى فى حجرتى لكان حظها عندى حظ « ساشا » ، هنا الفرق بين « الغرام » أو « الزوجية » ! ..

انى أدرك الان لماذا يفتر الحب الملتهب بين الخليلين اذا تزوجا ، وقد يعود الى سابق اشتعاله اذا عادا خليلين ، لكل منهما حياته المنفصلة .. ان الانفصال هو الذى يغرى بالاتصال .. لهذا كله كانت حياة « ساشا » معى أقرب الى الحياة الزوجية الخالية من أى عاطفة قوية ، فما معنى خطابها هذا الذى كتبته اليوم ؟ .. أتراها أنوثة المرأة ، تنسى كل شرط وكل اتفاق ، ولا تذكر الا الرغبة فى ان تشغل قلب الرجل ؟ .. وماذا أنا قائل لها ؟ .. ما دمت أوقن بأنها لا تحبنى ! ؟ ..

وطويت رسالتها وطرحتها جانبا ، ومضيت فى عملى ومطالعاتى .. الى أن عادت ومعها نسخة من صحيفة يومية ، وأخبرتنى مبتهجة بأنها وجدت لنفسها عملا ، فلقد قرأت اعلانا فى الجريدة لأحد المسارح الراقصة . يطلب فتيات لهن أجسام جميلة تصلح لرقص المجموعة. فتقدمت فى الحال وكان نصيبها للفوز ، فما من شك أن جسمها يعد خير نموذج لجسم المرأة الجميل ! .. على ان المسرح لن يعطيها بادىء الامر أكثر من

خمسمائة من الفرنكات فى الشهر ، وقالت لى وهى تخلع قبعتها ، وتنثر فى الهواء شعرها الأشقر :

« لا استطيع كيف اشكرك على معونتك لى ولكنى ارجو منذ الغد أن تكف عن منحى الفرنكات العشرة . على أنى لم أزل بعد فى حاجة الى مشاركتك حجرتك، لأن ربحى — كما ترى — لا يسمح لى حتى الان باقتناء مسكن خاص ! » ..

فقلت لهـــا :

« يا عزيزتى ! .. الان فهمت سر خطابك ! .. احسبت أنى أهرب منك ، استياء وتبرما وضيقا بعبء العشرة الفرنكات ! .. فخرجت تبحثين عن عمل ؟ .. على كل حال ، انت حرة فى شئون حياتك ، وانى دائما عند تعهدى بأن أكون فى معونتك وخدمتك على الوجه الذى تريدين ! » ..

واستمرت حياتنا المشتركة تجرى فى مجرى هادىء : فكلانا له شغل منفصل عن الاخر ، وحياة مخالفـــة لحياة الاخر . لا يجمعنا الا الليل فى فراش واحد ، ولم يخطر على بالى حتى مجرد التفكير فى نوع عمليتنا او المقارنة بين حياتى وحياتها ، منذ ذلك اليوم ، فأنا طالب قانون وفلسفة وعلم وفن وأدب ، وهى راقصة فى مسرح راقص من طراز « الفــولى برجـير » أو « المولان روج » .. لست أذكر اسمه ، ولعلى لم اسألها عنه ، ولابد انها أخبرتنى باسمه وبحذره ، فلم أحفل بذلك ، ولم أع ما قالت ، ولم انصرف بذهنى عما كنت أقرؤه وقتئذ . او افكر فيه .. ولم أشـــــعر انا بتغيير فى نظامنا ، سوى انقطاعى عن منحهـا أى نقود ! .. لقد حدث تغيير فى نظام حياتها هى : فهى

تعود الى الحجرة كل ليلة بعد التمثيل فى آخر قطار من قطارات « المترو » ، تعود « بالماكياج » مطلية من رأسها الى قدميها بالأحمر والأبيض .. فليس فى مسرحها ولا فى بيتنا حمام ، فتدس جسمها المطلى فى الفراش على هذه الصورة .. لقد انزعجت حقا اول الأمر ، يوم نهضت فى الصباح ، فأبصرت جسمى أنا الاخر قد نضج بتلك الألوان .. ولكن انزعاجى لم يقف عند هذا الحد ، انها تعلمت التدخين بالطبع ، وأنا أكره رائحة الدخان .. فالويل لى عندما كنت آوى الى فراشى ذات ليلة مبكرا .. انها كانت تعود آخر الليل والسيجارة فى فمها ، وتسير فى الحجرة على أطراف قدميها حتى لا توقظنى ، وتطرح معطفها الثقيل عن جسمها العارى — الا من « مايوه » الرقص — وتذهب الى المطبخ فتأتى بشطيرة خبز داخلها سردينة ، فهى جائعة ، وتجذب من بين كتبى قصة « لفلوبير » أو « بلزاك » أو تمثيلية « لبورتوريش » أو « لينورمان » .. فهى مقيمة على عادة القراءة قبل النوم .. وتضىء المصباح الكهربائى على رأس السرير ، ثم ترفع عنى الغطاء برفق وحذر .. وتدخل الفراش الى جانبى ، بسردينتها ودخانها وكتابها وأحمرها وأبيضها ، ونحسب بعد ذلك كله أنها حرصت على عدم ايقاظى وازعاجى ! .. لطالما نهضت لأنهرها وأطلب اليها أن تبطل هذا كله وتنام . فكانت تستعطفنى وتستمهلنى حتى تتم قراءة القصة ! ..

وكنت أقول : « تتمين قراءة القصة ؟ الليلة ؟ ! » .

الواقع أنها كانت سريعة القراءة الى حد كان يدهشنى ، انها تتم قراءة القصة التمثيلية فى ساعة واحدة ، وأنا الذى أقرؤها فى يومين أو ثلاثة ، ولكن

هنالك فرقا هائلا بين قراءتى وقراءتها ! .. انهـــا تقرأ للحكاية فى ذاتها . أما أنا فـلا تعنينى حــكاية الكاتب ، بل يعنينى فنه ، وسر صناعته ، وطريقــة أسلوبه فى البناء وخلق الاشخاص ، ونسج الجــو ، واحداث التأثير ! .. انى أعيد أحيانا قراءة الفصل الواحد ، بل الصفحة الواحدة مرات .. لكم أعدت قراءة « موايير » ، لا لشيء غـير دراســة طريقتــه فى تقــديم الاشخــاص ، ورســم أخلاقهم ! .. تلك الطريقة التى تختلف أحيانا ، وتتغير فى كل رواية من رواياته .. لذلك لم تكن قراءة « ساشا » تصــلح أساسا حتى للمناقشة ومبادلة الرأى .. وما كنت أجنى منها الا ذلك المصباح المسلط على رأسى ، والدخان الذى يضيق به صدرى فى ذلك الهزيع الاخير من الليل .. انها كانت أحيانا تخشى غضبى فتقفز فى مطالعتها فصلا أو فصلين وتصل الى خاتمة الكتاب سريعا ، ثم تطفىء النور ، وتجذب الغطاء فوقهـــا جــذبة تتركنى أنا فى العــراء ، فلا أتمالك نفسى ، وأقرصها قرصة تصرخ منها فى جوف الليل ! .. ويأتى النهار ، فتستيقظ فى الضحى ، وأبقى أنا فى السرير كسلا .. وتسرع هى الى ثياب الخروج ، فترتديهــا لتذهب الى المسرح فى ميعاد التجارب « البروفات ».

لبثنا معا فى هذه الحياة ثلاثة اشهر ، لم يختــل نظامها أو قل « فوضاها » قيد شعرة . حتى تعودت احتمالها ، فندر غضبى أو ضجرى ، وبدأت هى تهتم بما أعمل بعض الاهتمام ، فكانت تسألنى ان اطلعها على ما أكتب من حوار أو قصص .. فما كنت أقبــل ذلك .. لست أدرى لماذا ؟ .. أما هى فكانت تسألنى رأيى فى بعض الحركات الجديدة لرقصها ، فكنت اتبرم

بذلك ايضا ، فهذا ليس فى عرفى رقصا فنيا ، فالرقص الفنى عندى هو « بافلوفا » و « فوللر » و « ايزادورا دونكان » ، ورقص الجوقات والمجاميع فى «الاوبرات» الرفيعة ، او فى « الباليه الروسى » . أو حتى فى الرقصات الدينية التى نراها منقوشة فى الفن المصرى والهندى ، ولكنها كانت تحرك سيقانها ورأسها وذراعيها فى الحجرة ، فلا اجد مفرا من النظر ! ..

كنت أقول لها ان رقصها هذا فى المجموعة جماله ليس فى ذاته ، بل فى التناسق العددى لكميات الأذرع والسيقان التى تتحرك فى وقت واحد ، وليته مع ذلك كان بالروح الفنى المعروف فى راقصات المعابد الهندية ؟ ! .. ولقد الحت على الحاحا شديدا فى أن أذهب مرة لمشاهدتها على المسرح .. واحضرت لى تذاكر مجانية ، فلم اجد من نفسى يومئذ حافزا على الذهاب ، وليتنى ذهبت ! ..

وكاد ينتهى الشتاء فجاءتنى ذات يوم تقول ان المسرح سيوفد الفرقة الراقصة لتقوم برحلة فى « نيم » أو « أورانج » و « أفنيون » فى جنوب فرنسا، وقد تستغرق الرحلة شهرا أو شهرين ، وجعلت تتجهز للرحيل ، وهى ترجونى وتزين لى أن أذهب معهم فى هذه الرحلة ، فضحكت للفكرة .

« أذهب فى رحلة الراقصات بأى صفة وعلى اى وضع ؟ .. أبصفتى صديق الراقصة ؟ .. هذا جميل جدا ! .. ومن يدرى ، ربما عدت من الرحلة، وقد عينت نهائيا راقصا بالفرقة ، أو شيئا من هذا القبيل ؟ .. كلا يا عزيزتى « ساشا » ! .. انى لا أستطيع أن أترك باريس » و « اللوفر » و «الكتب»

و « الحى اللاتينى » و « مونمارتر » و « بلبور » .. اذهبى أنت وسيرى بمفردك ، فى طريق حياتك ، وانى اتمنى لك التوفيق والنجاح ! » ..

وودع أحدنا الآخر وداعا حارا وشعرت فى تلك اللحظة بشىء من السعادة ، لعودتى حريتى الكاملة الى ووحدتى المطلقة ! ..

العقلية المصرية

... لا ريب ان العقلية المصرية قد تغيرت اليوم بعض التغيير ! .. ولكن كيف تغيرت ؟ .. هذا هو موضوع الكلام .. ان شئون الفكر فى « مصر » حتى قبيل ظهور الجيل الموجود كانت مقصورة على المحاكاة والتقليد ، محاكاة التفكير العربى وتقليده ! . كنا فى شبه اغماء ، لا شعور لنا بالذات .. لا نرى أنفسنا ، ولكن نرى العرب الغابرين ! .. لا نحس بوجودنا ، ولكن نحس بوجودهم هم ! .. لم تكن كلمة « أنا » معروفة للعقل المصرى ، ولم تكن فكرة الشخصية المصرية قد ولدت بعد ! ..

وجاء الجيل الجديد فاذا هو أمام روح جديد ، وأمام عمل جديد . لم يعد الأدب مجرد تقليد أو مجرد استمرار للأدب العربى القديم فى روحه وشكله ، وانما هو ابداع وخلق لم يعرفهما السلف ، وبدت الذاتية المصرية واضحة ، لا فى روح الكتابة وحدها بل فى الأسلوب واللغة أيضا .. لقد بدأنا نعى ونحس وجودنا ! ..

وأول مظاهر الوعى شخصية الأسلوب ، واستقلال طريقة التعبير ، وما يتبعها من الفاظ وأخيلة .. كل هذا أصبح اليوم جليا معروفا ، ولم أكتب هذه الصفحات من أجله ، فحاجة مصر الى الاستقلال الفكرى أمر لا نزاع اليوم فيه ، ولقد مضى الكلام فى هذا ، انما الأمر الذى يحتاج الى كلام هو معرفة

مميزات الفكر المصرى : معرفة أنفسنا حتى تتبين لجيلنا مهمته .. لقد فهمنا مميزات الأسلوب والشكل، وما فهمنا بعد جيدا مميزات النفس والروح ! ..

ما هى مميزات العقلية المصرية فى الماضى والحاضر والمستقبل ؟ .. ما روح مصر ؟ .. ما مصر ؟ .. ان اختلاطنا بالروح العربية هذا الاختلاط كاد ينسينا أن لنا روحا خاصة ، تنبض نبضات ضعيفة تحت ثقل تلك الروح الاخرى الغالبة ، وان أول واجبه علينا هو استخراج أحد العنصرين من الاخر ، حتى اذا ما تم تمييز الروحين — احداهما من الاخرى — كان لنا أن نأخذ أحسن ما عندهم ، وكان لنا أن نقول للناس : ها نحن أولاء قد أنرنا لكم الطريق الى أنفسكم فسيروا » ! ..

لابد لنا اذن أن نعرف من المصرى ومن العربى ؟ . هذا السؤال ألقيته على نفسى منذ سنوات معدودة اذ كنت أطيل النظر فى الفنين المصرى والاغريقى ؟ .. وأذكر انى أثرت هذه المسألة أمام بعض الباحثين ، وأذكر انى لخصت الفرق بين العقليتين بمثل واحد فى فن النحت سائلا : ما بال تماثيل الادميين عند المصريين مستورة الاجساد ، وعند الاغريق عارية الأجساد ؟ .. هذه الملاحظة الصغيرة تطوى تحتها الفرق كله ، كل شىء فى « مصر » مستتر خفى عند المصريين ، عار جلى عند الاغريق ! .. نعم كل شىء فى مصر خفى ، كالروح ، وكل شىء عند الاغريق جلى ، كالمنطق ! .. فى مصر الروح والنفس ، وفى اليونان المادة والعقل ! .. نظرة أخرى فى أسلوب النحت تدعم هذا الكلام .. ان المثال المصرى لا يعنيه جمال الجسد ولا جمال الطبيعة من حيث هى شكل

ظاهر ، انما تعنيه الفكرة ، انه يستنطق الحجر كلاما وأفكارا وعقائد ! .. على أنه يشعر مع ذلك بالتناسق الداخلى ! .. يشعر بالقوانين المستترة التى تسيطر على الأشكال ! .. يشعر بالهندسة غير المنظورة التى تربط كل شيء بكل شيء ! .. يشعر بالكل فى الجزء وبالجزء فى الكل ، وتلك أولى علامات الوعى فى الخلق والبناء ! ..

هذا كله يحسه الفنان المصرى ، لأن له بصيرة غريزية أو مدربة تنفذ الى ما وراء الأشكال الظاهرة، لتحيط بقوانينها المستترة ! .. فنان عجيب لا يصرفه الجمال الظاهر للأشياء عن الجمال الباطن ! .. انه يريد أن يصور روح الأشكال لا أجسامها ، وما روح الشكل الا القانون العام الأعلى المستتر خلفه ! .. ان ولع المصريين بالقوانين الخفية لشيء يبلغ حد المرض ، مرض الهى ، لو أن الآلهة تمرض لكان هذا مرضها : فرط البحث عن القانون ! ..

كل شيء فى مصر الهى ، لأن « مصر » التى منحتها الطبيعة الخير واليسر وسهولة العيش وكفتها مشقة الجهاد فى سبيل المادة استلقت منذ الأزل تتأمل ما وراء المادة .. حظها فى هذا حظ « الهند » ، أمة كثيرة الخير دانية القطوف ، لا حاجة بها الى الكفاح ، ولا عمل لها الا استمراء ترف الحكمة العليا .. انقطعت هى أيضا من قديم تحت أشجارها المقدسة تبحث عما وراء الحياة .

مصر والهند حضارتان قامتا على الروح ، لأنهما قد شبعتا من المادة ، والاغريق على النقيض : أمة لم تشبع من المادة .. أمة نشأت فى العسر والفاقة

.. أرضها لا تدر من الخير الا قليلا .. كان لزاما عليها الكفاح فى سبيل العيش ، وكان حتما عليها الجرى وراء المادة .. حرب تلو حرب ، وفتح بعد فتح ، وضرب فى مشارق الأرض ومغاربها ، على هذا النحو لم يكن للاغريق ذلك الضمير المطمئن ، ولا ذلك الشعور بالاستقرار ، ولا ذلك الايمان بالأرض الذى يوحى بالتفكير فيما وراء الأرض والحياة! ان عاطفة الاستقرار والايمان عند المصريين ممزوجة بالدم ، لأن المصريين نزلوا من بطن الأزل الى أرض مصر ، لا يعرف لهم نسب آخر على وجه التحقيق واختلاف العلماء فى أمر أصلهم لم ينته بعد ، وفى كل يوم يبدو دليل على أن العمران والاستقرار وجدا فى مصر قبل التاريخ المعروف . ولقد ظهرت الحضارة المصرية فى التاريخ تامة كاملة دفعة واحدة ، كما يظهر قرص الشمس فى الأفق عند الشروق ! .. ولقد قال « سولون » : ان الكهنة المصريين يعنون العناية كلها بذكريات تلك القارة العظيمة ذات المدنية الزاهرة التى ابتلعها المحيط قبل مبدأ التاريخ : « قارة لأتلانتيد » أترى كانت الحضارة المصرية استمرارا لتلك المدنية المندثرة ؟ .. لم يقم دليل على كل فرض ، « مصر » أمة مستقرة مؤمنة ، زهدها عمرها الطويل، وخيرها الكثير فى مباذل الحياة ، وهذا الزهد والتفكير فيما وراء الحياة ظهر أثرهما على وجه الفن المصرى، ولا شىء يدل على عواطف أمة وعلى عقليتها مثل فنها ، فلقد طالع العالم الحديث على وجه الفن المصرى الصرامة والجد والعمق ، ولا أكاد أفتح كتابا فى الفن المصرى حتى أجد كلمة « الصرامة » نعتا من نعوت هذا الفن ، ولا أفتح كتابا فى الفن الاغريقى

الا وجدت كلمة « الحياة » ، وكلمة « الانسانية » من نعوت هذا الفن ! .. نعم ، الحياة هى كل شىء عند الاغريق ، قد يدفعهم حب البحث الى لمس حدود الحياة الأخرى ، فيلمسونها بالعقل والمنطق لا بالقلب والروح ! .. فلسفتهم العقل والمنطق والحياة ! .. فلسفة الحركة لا فلسفة السكون ! ..

عند « مصر » و « الهند » السكون ، وعند « الاغريق » الحركة .. قرأت حديثا « المقبرة البحرية » لـ « بول فاليرى » ، وهو المتصل اتصالا مباشرا بالفلسفة اليونانية ، فاذا هو يشير فى قصيدة الى الحركة والسكون ، واذا الحركة عنده من خصائص العدم الخالد غير الواعى ، وهو يعارض « زينون » الالياتى فى انكاره للحركة ، ويتغنى فى آخر القصيدة بانتصار الحركة ، اى الحياة على قصرها وفنائها ، فهو فى ذلك لم يخرج عن يونانيته المكتسبة ، ولم يفهم رأيى روح « مصر » و « الهند » ! ولم يشرف على ذلك العالم الخالد غير الواعى ، فان دون هذا الاشراف والاتصال التجرد التام من كل عقل آدمى أو منطق بشرى ! .. هذه هى الصعوبة فى فهم « مصر » و « الهند » ، وهذا ما جعل الفن المصرى سرا مغلقا حتى أوائل هذا القرن ، وما صرف الناس الى دراسة اليونان وحدها ، فهى واضحة المعنى يسيرة المنال ، لأنها لزمت شاطىء الحياة ! ..

حظ « الاغريق » فى كل هذا حظ العرب أيضا : امة نشأت فى فقر لم تعرفه أمة غيرها .. صحراء قفراء .. قليل من الماء يثير الحرب والدماء .. جهاد وكفاح لا ينقطعان فى سبيل العيش والحياة .. أمة لاقت الحرمان وجها لوجه ، وما عرفت طيب الثمار

وجرى الأنهار ورغد العيش ومعنى اللذة الا فى السير والأخبار . كان حتما عليها ألا تحس المثل الاعلى فى غير الحياة الهنيئة ، والجنات الخضراء ، والماء الجارى ، والوان النعيم واللذائذ التى لا تنضب ولا تنتهى ! .. امة بأسرها حلمت بلذة الحياة ولذة الشبع ، فأعطاها ربها اللذة ومنحها الشبع ! .. كل تفكير العرب وكل فن العرب فى لذة الحس والمادة ، لذة سريعة منهومة, مختطفة اختطافا ، لأن كل شيء عند العرب سرعة ونهب واختطاف ! ..

عند الاغريق الحركة ، أى الحياة ، وعند العرب السرعة ، أى اللذة .. لم تفتح أمة العالم بأسرع مما فعلت العرب ، ومر العرب بحضارات مختلفة فاختطفوا من أطايبها اختطافا ركضا على ظهور الجياد .. كل شيء قد يحسونه الا عاطفة الاستقرار وكيف يعرفون الاستقرار وليس لهم ارض ولا ماض ولا عمران ؟ .. دولة أنشأتها الظروف ولم تنشئها الأرض ، وحيث لا أرض فلا استقرار ، وحيث لا استقرار فلا تأمل ، وحيث لا تأمل فلا « ميتولوجيا » ولا خيال واسعا ولا تفكير عميقا ، ولا احساس بالبناء ! .. لهذا السبب لم تعرف العرب البناء ، سواء فى العمارة أو فى الأدب أو فى النقد . . الاسلوب العربى فى العمارة من أو هى أساليب العمارة التى عرفها تاريخ الفن ، واذا عاش لليوم فانما يعيش بالزخرف .. فن الزخرف العربى هو الذى أنقذ العمارة العربية .. ان العمارة العربية — الا فى « مصر » — ما هى فى رأيى سوى زخرف لا بناء، فلا أعمدة هائلة ، ولا جبهة عريضة ، ولا وقفة ولا بساطة عظيمة ، ولا. روعة عميقة ، انما هى

وشى كثير وجمال كجمال الحلى المرصع : يبهر البصر ، ولا فكر خلفه ! ..

أما فن الزخرف العربى فى الحق أجمل واعجب فن للزخرف خلده التاريخ .. والزخرف عند العرب وليد ذلك الحلم باللذة والترف ، كل شىء عند العرب زخرف .. الأدب نثر وشعر لا يقوم على البناء ، فلا ملاحم ولا قصص ولا تمثيل ، انما هو وشى مرصع جميل يلذ الحس : « فسيفساء » اللفظ والمعنى ، و « أرابسك » العبارات والجمل ! .. كل مقامة للحريرى ، كأنها باب لجامع المؤيد : تقطيع هندسى بديع ، وتطعيم بالذهب والفضة ، لا يكاد الانسان يقف عليه حتى يترنح مأخوذا بالبهرج الخلاب ! .. كذلك الغناء العربى « أرابسك » صوتى ، فلا مجموعة أصوات متسقة البناء ، كما فى « الديترامب » أو « الاوركسترا » الاغريقية ، أو كما فى « الكورس » الجنائزى المصرى . ولا حتى مجرد صوت ينطلق حرا بسيطا مستقيما ! .. انما هو صوت محمل بألوان المحسنات من تعاريج وانحناءات والتواءات وتقاسيم، كأنها « ستالا كتيتات » حتى يستخفه الطرب ويضع نعله فوق رأسه . كان هذا فى العهد الأول للموسيقى، اذ كانت عند جميع الشعوب بسيطة عارية ، تخرج من القلب تعبيرا عما فى القلب ، أو رمزا لفكرة من الأفكار ! .. والموسيقى كالعمارة من الفنون الرمزية لا الفنون الشكلية ، ولكن العرب لا يحبون الرموز ، ولا طاقة لهم بالفن الرمزى ، ولا يريدون الا التعبير المباشر بغير رموز الا الصلة المباشرة بالحس ، فجعلوا من الموسيقى لذة للأذن لا أكثر ولا اقل ، كما جعلوا العمارة لذة للعين لا أكثر ولا أقل . ولقد حاول

« الفارابى » — فيما أذكر — التقريب بين الموسيقى العربية والموسيقى الاغريقية ، وكان لابد له من الاخفاق لأسباب قد أذكرها بعد ! ..

كذلك التصوير العربى على جمـاله ودقته ليس الا مجرد تزيين وزخرف للكتب والمخطوطات ، ولم يؤد لغير تلك الغاية « المنياتور » الفارسى .. قـد يكون للدين دخـل فى تأخر النحت والتصوير عنـد العرب ، غير أنى أعتقد فى براءة الدين ، فان العرب كانوا دائما ضد الدين كلما وقف الدين دون رغبـات طبـائعهم : لقـد حرم الدين الشراب ، فأحلوا هم الشراب فى قصور الخلفـاء ، وما وصفت الخمـر ولا مجالس الخمر فى أدب أمة بأحسن مما وصفت فى الادب العربى ! .. لا شىء فى الارض ولا فى السـماء يستطيع أن يحول بينهم وبين اللذة ..

أما النحت أو التصوير الكبير فليس فى طبيعتهم ، لأن تلك الفنون تتطلب فيمن يزاولها احساسا عميقـا بالتناسق العام ، مبناه التأمل الطويل ، والوعى الداخلى للكل فى الجزء ، وللجزء فى الكل ، وليس هذا عنـد العرب ، فهم لا يـرون الا الجزء المنفصـل ، وهم يستمتعون بكل جزء على انفراد .. لا حاجة لهم بالبناء الكامل المتسق فى الأدب ، لأنهم لا يحتاجون الا للـذة الجزء واللحظة .. قليل من الكتب العربية فى الأدب يقوم على موضوع واحـد متصل ، انمـا أكثر الكتب « كشاكيل » فى شتى الموضوعات تأخذ من كل شىء بطرف سريع : من حكمة وأخلاق ودين ولهو وشـعر ونثر ومأكل ومشرب وفوائد طبية ولذة جسـدية ، حتى اذ يترجمون عن غيرهم يسقطون كل أدب على البناء ، فلم ينقلوا ملحمة واحدة ، ولا «تر

واحدة ، ولا قصة واحدة . العقلية العربية لا تشعر بالوحدة الفنية فى العمل الفنى الكبير ، لأنها تتعجل اللذة . يكفيها بيت شعر واحد أو حكمة واحدة أو لفظ واحد أو نغم أو زخرف لتمتلىء طربا واعجابا ، لهذا كله قصر العرب وظيفة الفن على ما نرى من الترف الدنيوى واشباع لذات الحس حتى الحكمة ، وشعراء الحكمة كانوا يؤدون عين الوظيفة : اشباع لذة المنطق ، والمنطق جمال دنيوى .. ولا أستغرب غضب « نيتشه » على « ايروبيد » لاسرافه فى هذا المنطق على حساب الموسيقى ..

من المستحيل اذن أن نرى فى الحضارة العربية كلها أى ميل لشئون الروح والفكر بالمعنى الذى تفهمه « مصر » و « الهند » من كلمتى الروح والفكر .. ! ان العرب أمة عجيبة ، تحقق حلمها فى هذه الحياة ، فتشبثت به تشبث المحروم ، وأبت الا أن تروى ظمأها من الحياة ، وأن تعب من لذاتها عبا قبل أن يزول الحلم ويعود شقاء الصحراء ، وقد كان .. ان موضع الحضارة العربية من « سانفونية » البشرية كموضع الـ « سكيرتزو » من سانفونية « بيتهوفن » : نغم سريع مفرح لذيذ ..

لا ريب عندى أن مصر والعرب طرفا نقيض : مصر هى الروح ، هى السكون ، هى الاستقرار ، هى البقاء .. ! والعرب هى المادة ، هى السرعة ، هى الظعن ، هى االزخرف .. !

مقابلة عجيبة ، مصر والعرب وجها الدرهم ، وعنصر الوجود .. ! أى أدب عظيم يخرج من هذا التلقيح .. ! اننى أؤمن بما أقول ، وأتمنى للادب المصرى الحديث

هذا المصير : زواج الروح بالمادة ، والسكون بالحركة ، والاستقرار بالقلق ، والبناء بالزخرف .. ! تلك ينابيع فكر كامل ، ومدنية متزنة لم تعرف البشرية لهـــا من نظير .. ان أكثر المدنيات يميل : اما الى ناحية الروح، واما الى ناحية المـــادة ..!

حضارة واحدة قيل انها استطاعت فى وقت ما هذا المزج بين الروح والمادة ، وهذا الاتزان بين عنصرى الوجود ، تلك حضارة « الاغريق » .. ! نعم أعود فأرد الى أمة « الاغريق » اعتبارها ، واعترف انى عندما وضعتها فى كفة المادة كنت متأثرا بعض الشيء بكلام « تين » و « تين » عقل خلاب ، لكنه عقل ، والعقل وحده بعيد عن فهم الجانب الروحى للمدنيـــات .. ما هدانى الى الحق الا القلب .. الا طول تأمـــلى فى جبهة « البارتينون » هى دماغ ذلك الجواد الذى خلقته يد « فيدياس » فوق هذا المعبد خرجت أفكار توحى الى بأن أولئك القوم كانوا أعمق مما نظن ، وكانوا يشعرون بشيء آخر غير مجرد المادة الظاهرة ، وما ابثت « ميليومين » ان جاءتنى ببينة أخرى ، وتأملت قليلا فرأيت القناع قد كشف ، وذكرت من فورى أن اصل الاغريق جنسان مختلفـــان : « اليونانيـــون » القادمون من آسيا ، المعروفون عنـــد اليهود باسم « اليافاناس »أى عباد « يونا » ، و « الدوريون » الحربيون البرابرة الهابطون من الشمال ، والـــه اليونانيين هو « ديونيزوس » واله الدوريـــين هو « أبولون » . وها هنا تفسير الاغريق : فى هـــذا الصراع بين « ديونيزوس » رمز الروح والقوى الخفية الشائعة والنشوة .. وبين « أبولون » رمز الفردية والشخصية المفروزة والوعى ، صراع بـــين الـــروح

والمادة وبين القلب والعقل ، وبين النشوة والوعى ، « ديونيزوس » اله آسيوى فيما يخيل الى ، جلب من « الهند » بلامراء ، فغدا فى اليونان ينبوع الموسيقى. لهذا السبب قدرت اخفاق « الفارابى » فان الموسيقى الغرب من عباد « أبولون » وهـم لا يشعـرون ان الوعى والمنطق العقلى والظاهر المحسوس .. ان العرب من عباد « أبولون » وهوم لا يشعرون . ان العرب لا يمكن أن يفـهموا « ديونيزوس » ، تـلك النشوة الدينية ، الجارفة التى تخرج صاحبهـا من سيطرة العقل والوعى ، كى تصله مباشرة بالطبيعة .. ان أغانى عباد « باكوس » الحماسية فى الغابات ، ومزامير الـ « ساتير » ، لشىء بعيـد ادراكه على العقلية الفردية ، شعور الانسان فى لحظة أنه انقلب مخلوقا له جسم جواد ورأس رجل أو رأس رجـل ، وأرجل ماعز .. هذا الاتحاد بين الحيوان والانسان احساس ليس له مثيل الا عند المصريين القـدماء .. هذا التلاقى بين الأنواع وبين القوى فى مخلوق واحد لهو عند الأولين بقية ذكرى تلك المخلوقات الالهيـة البائدة التى كانت تحكم الارض قبل ظهور الانسان .. مخلوقات لا هى من الاناث ، ولا هى من الذكور ، لا هى من الحيوان ، ولا هى من الانسان ، ان الاجناس والفصائل م تكن قد فرزت ، كذلك « السـاتير » فى « الميتيولوجيا » الاغريقية رمز للانسان الأول، الانسان الذاتى من الحيوان ، القريب من الالهة ، يدنـو من الحيوان بغريزته الجنسية المتيقظة ينبوع القوة الخالقة عند الاغريق والهنود ، كما هى عند المصريين ، ويقرب من الآلهة بغريزته الروحية المتصلة بقوى الطبيعـة الالهية ، فهو ما زال يحتفظ بقبس من الحكمة العليا

بدون أن يشعر ، وببريق من ذلك النور الروحى ، والالهام الذاتى يرى به كتلة الزمن . من ماض وحاضر ومستقبل فى شبه لمحة واحدة ..!

تلك القدرة الخفية هى حاسة بائدة كانت للانسان الأول ، وفقدناها اليوم .. نعم فقدنا كل القوى الروحية التى منحتنا اياها الطبيعة يوم كنا نحبها ونتصل بها ولم يبق لنا اليوم الا العقل المحدود والمنطق المعاصر .. وها نحن أولاء اليوم فى هذا الكون الهائل مخلوقات منفردة منبوذة .. أين ذهب « ديونيزوس » .. ؟ وهل يبعث من جديد .. ؟ واذا بعث فهل يجد من يعرفه فى هذا العصر ذى الحضارة المادية الفردية .. ؟

رجل واحد ما زال يذكر هذا الاله ويستطيع أن يعرفه اذا ظهر كما عرف « غالياس » أصحاب الكهف .. ! وهو وحده كذلك يستطيع أن يستقبله باسم هذا العصر ، هذا الغالياس العصرى هو : « تاجور » ..! انه يتكلم كثيرا عن ذلك الاتحاد بين الانسان والطبيعة، وعن ذلك الفاصل المرفوع بين الحياة الخاصة وبين الحياة العظمى التى تخترق الكون ، وعن ذلك الحب بين الانسان والجماد . هذا كلام جميل ، لكن هل تراه يشعر بحقيقته .. ؟ يخيل لى أن تلك الحقائق قد انطوت بانقضاء دولة الاغريق ، بل لقد انقضت قبل أن تنقضى دولة الاغريق .. انقضت بطغيان منطق « سقراط » على روح « هوميروس » ، انقضت بطرد « ديونيزوس » من « تراجيديات ايروبيد » ، « ... غضبة (نيتشه) المعروفة .. » انقضت بغلبة الاحساس العقلى على الاحساس الروحى .. انقضت بانتصار « أبولون » فى النهاية على « ديونيزوس » ..

وهكذا اختل التوازن ، ورجحت كفة المادة ، وانطفأت الحضارة الاغريقية الى الابد . ولم ترث أوربا منها غير كنوز العقل والمنطـق ، وبقيت فى الظـلام روح « ديونيزوس » الخفية ..

لم تنجح اليونان اذن النجاح المطلوب فى تطعيم الروح بالمادة ، فهل تأمل مصر بلوغ هذه الغاية يوما .. ؟

(من رسائل متبادلة مع طه حسين)

عام ١٩٣٣ — كتاب تحت شمس الفكر .

الفهـــرس

الصفحة

الشركة الشرقية للنشر والتوزيع
بيروت ـــ لبنان

مطابع الأهرام التجارية